

يوسف السباعى

ليالٍ ودموع

الناشر
مؤسسة الخانجى بمصر
المكتب التجارى ببيروت
مكتبة المثنى ببغداد

للمؤلف

أطياف ... ... الناشر مكتبة الخانجى

نائب عزرائيل ... ... » » »

إثنتا عشرة امرأة ... ... » » »

خبايا الصدور ... ... » » »

يا أمة ضحكت ... ... » » »

إثنا عشر رجلا ... ... » » »

أرض النفاق ... ... » » النهضة

فى موكب الهوى ... ... » دار الفكر العربى

من العالم المجهول ... ... » مكتبة الخانجى

هذه النفوس ... ... » دار الفكر العربى

إنى راحلة ... ... » مكتبة الخانجى

مبكى العشاق ... ... » دار الفكر العربى

بين أبو الريش وجنينة ناميش ... ... » مكتبة الخانجى

أغنيات ... ... » » »

أم رتيبة (تمثيلية) ... ... » » »

هذا هو الحب ... ... » دار الفكر العربى

صور طبق الأصل ... ... » مكتبة الخانجى

بين الأطلال ... ... » » »

السقامات ... ... » » »

سمّار الليالى	... ...	الناشر	دار الفكر العربى
الشيخ زعرب	... ...	«	مكتبة الخانجى
نفحة من الإيمان	... ...	«	دار الفكر العربى
وراء الستار (تمثيلية)	... ...	«	نادى القصة
ست نساء وستة رجال	... ...	«	مكتبة الخانجى
هذه الحياة	... ...	«	دار الفكر العربى
البحث عن جسد	... ...	«	مكتبة الخانجى
جمعية قتل الزوجات (تمثيلية)	... ...	«	النهضة المصرية
فديتك ياليلى	... ...	«	مكتبة الخانجى
ليلة خمر	... ...	«	مكتبة الخانجى
همسة غابرة	... ...	«	دار الفكر العربى
رد قلبي	... ...	«	مكتبة الخانجى
ليال ودموع	... ...	«	« «

الإهداء

إلى الفنان المجهول الكائن وراء هذا الكوم الكبير من كتبي الأنيقة البراقة .

إلى « نامبو » المدير الفنى لشركة « فن الطباعة » .

أهدى آخر ما أنتجه فى طباعته . . .

قبل أن يصرعه جهده بين ماكيناته ولوحاته . . .

فيسقط كما يسقط الفنان على مسرح فنه . . .

يوسف السباعى

مقدمة

هذا الكتاب الذى أكتب مقدمته لا أظننى وحدى صاحب الجهد فيه .. وفى غيره من الكتب التى سبقته .

لقد شاركنى فى إخراجها إلى حيز الوجود الكثيرين ممن لا يعرف القارىء عنهم شيئاً .

شاركنى فيها ناشر جرىء .. يقذف إلىّ ببضع كمبيالات يرص فيها بضعة أرقام قد تصل إلى خانة الآلاف ، ثم يمهرها ببساطة « نجيب الخانجى » كأنه عبود أو روتشيلد ، وأقذف بها بدورى إلى « بنايوتى » فى مخزن الورق أو فى المطبعة . وأنا وناشرى لا نتحكم إلا فى قوت يومنا .. معتمدين على الله وعلى رصيد ناشرى باعتبار ما سيكون فى وقت تحصيل الكمبيالة ، وهو رصيد لم يعرف الثبات لحظة واحدة ، وإنما هو متحرك لا يستقر فى البنك إلا بقدر ما يسمح بصرفه ، بل هو قد يصرف قبل أن يصل . فناشرى ، والحمد لله ، لم يكن يوماً صاحب رصيد ، وإنما هو « محولجى » يأخذ باليمين ليهب باليسار ، أو على الأصح يهب باليسار ما لم يصل بعد إلى اليمين .. ذلك هو شريكى الأول.. ناشرى الذى لا يستعمل فى معاملاته سوى الكمبيالات .

أما بقية الشركاء من رسامين وحفارين ومطبعجية وجمّيعه ، فهم كثيرون على رأسهم الأخ « عبد السلام » .. فقد منحه الله عبقرية ووهبه الزمن حنكة وتجربة جعلته الإخصائى الوحيد فى القطر فى فك طلاسم خطى ، وأنا أستطيع إذا ما حاولت تحسين خطى أن أكون خطاطاً . وقد كنته فى يوم من أيام الصبا عندما كنت أقوم بعمل مجلة خاصة بى كنت كاتبها ورسامها وخطاطها وكنت

أبتلى بقراءتها زميل من زملاء الدراسة يدعى أنور . ولكنى عندما أنهمك فى الكتابة ، وتأخذنى الجلالة ، ولا أحاول أن أتكلف تحسين الخط . . ينقلب خطى إلى شيء آخر غير الحروف العربية . . أشياء متشابكة سريعة ترسمها يدى وهى تحاول أن تجارى فى السرعة أفكارى ، فتنط الكلمات والحروف أو تصيبها من عجلتها لوثة تجعلها تكتب غير ما تريد . . فأنا أريد شيئاً وهى تكتب شيئاً آخر ، والمخلوق الوحيد الذى يستطيع أن يعرف ما أريد من هذا العبث المتعجل الذى ترسمه يدى فى انطلاقها وراء أفكارى هو « عبد السلام » . . يشهد بذلك بقية الجمّيعة فى المطابع الأخرى الذين روّعتهم الصفحات المليئة بالطلاسم المتشابكة والتى استطاعوا بمضى المدة أن يحولوها إلى حروف عربية .

والأسطى « سيد » الطبيع الذى ينظر إلى الحرف المتآكل أو الصفحة الباهتة نظرته إلى منكر أو إثم ، و « ماتسا » و « ليونيدا » وبقية الجيش من الجمّيعة والمجلداتية وعمال الورنيش والقص . . و . . والخ .

كل هؤلاء . . شركاء منسيون فى كتبى . .

لقد ذكرتهم اليوم . . لأنى فقدت كبيرهم . . « تاسو » الفنان الأصيل . . الذى كان يجرى فن الطباعة فى دمه ، والذى كان يعيد طباعة غلاف تجاوزت أنا عن بعض عيوبه لأنه لا يتجاوز هو عنها ، والذى أعاد كتابة عنوان « إلى راحلة » وهو لا يعرف العربية . لأن الخط لم يكتب بطريقة تلائم الرسم ، والذى سألنى مرة هل أصر على طبع الغلاف بالبارز رغم أنه سيكلفنى أربعين جنيها زيادة بسبب الحفر على النحاس ؟ فلما قلت له : أجل . ضحك وقال : لو قلت لا . . لاحترمتك كتاجر عاقل . ولكن أما وقد قلت نعم فسأحترمك أكثر كفنان مجنون مثلى ومثل بقية الفنانين المجانين .

وأنا أذكره جائل وسط ماكينات الطباعة سعيد مرح كما يجول الفارس وسط خيوله يربط هذه ويفك تلك وأذكره يفحص البروفات ويطابق الأحبار والألوان .

ثم أذكره .. وقد سقط طريح الفراش مصابا بذبحة نتيجة الجهد والإرهاق.

وأذكر كيف أوصاه الأطباء بعد أن أبل منها أن يكف عن جهده الشاق وعمله المضنى وأن يكتفى بجلوسه على المكتب .

ثم أذكر عودته مرة أخرى واستراقه الخطا ليجول بين ماكيناته العزاز وهو يقول لى : « لا أستطيع » .

ولا أذكر بعد ذلك غير نعى « بنايوتى » له فى التليفون عندما قال لى باختصار « البقية فى حياتك . لقد مات تاسو » .

ولم أعرف من أعزى فى موته ، ولا كيف ، ولا أين .. حتى جلست لأكتب المقدمة والإهداء ، فلم أجد خيراً من أن أعزى القراء فيه .. وأذرف عليه بعض الدموع فى كتابى أو كتابه الأخير « ليال ودموع » .

يوسف السباعى



ليلة بلا ثمن

كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة وأنا فى طريق إلى البيت ، وكنت مرهقاً مكدوداً ، ضيق الصدر بمتاعب اليوم ، ولم أجد هناك ما يدفعنى إلى التعجيل بالعودة إلى الدار ، وداخلنى إحساس بالحاجة إلى الانطلاق بالعربة فى الطرق الخالية بأطراف هليوبوليس .

ولم أعرج على البيت وتركت العربة تنطلق بى فى شارع السباق ، وأحسست من فراغ الطريق وسكونه وهبة الهواء الرطب التى لفحت وجهى بشئ من الانتعاش ، فتمهلت وأخذت أدندن بصوت خافت .

ولم يبد على طول الطريق أثر لعابر ، وقامت الدور على يمينى ساكنة مظلمة إلا من بضعة أضواء تنـــاثرت من نوافذها ، وعلى اليسار امتد سور السباق المنخفض وقد ترامى وراءه الفراغ الفسيح يلفه وشاح من الوحشة والظلمة والصمت المطبق .

وعلى أضواء الطريق الباهتة . . ووسط سكونه المخيم بدا لى شبح امرأة يستحث الخطا . وترامى إلى أذنى وقع خطواتها جادة متعجلة . . كأنها خطوات جندى فى طوافه .

وبغريزة الرجل . . ازددت تمهلا . . وأخذت أرقب

شبحها المقبل .. الذى لا أكاد أميز منه سوى حدوده الخارجية وطريقة سيره .

وأنا أميز المرأة بطريقة سيرها وهيكلها .. وأكاد أحس بمدى جمالها أو قبحها من هذين المنظرين . ولا أظنهما خدعانى إلا فى القليل النادر .. ولقد أحسست من خطوات المرأة المقبلة وتخطيط شكلها فى الضوء الباهت .. أنها شئ لطيف يستحق الرؤية .. أو أكثر من الرؤية إن أمكن .

وازداد تمهلى وهى تزداد اقتراباً .. وأيقظت الوحدة والظلمة ونسمات المرأة المقبلة مشاعرى وأرهفت حواسى ، فانحرفت بالعربة إلى الجانب الأقرب إليها — وهو جانب السباق — حتى أتمكن من رؤية وجهها .

وعندما دنت من العربة .. أحسست أن ضوء الطريق الخافت لن يهيىء لى فحصها جيداً .. وأضأت ضوء العربة الكبير .. فسطع عليها فجأة وبدا عليها الضيق والانزعاج وبدت لى فى خطواتها العجلى وسيرها المندفع كطائرة أمسك بها ضوء كشاف وهى تحاول الفرار منه .

وخرجت عن نطاق الضوء .. واستمرت فى سيرها العجل .. وخطواتها الجادة ، غير متلفتة حولها .. أو ملقية إلى أدنى اهتمام .

ولم أحاول التوقف .. فقد كانت الفترة التى وضعت خلالها فى نطاق الضوء .. كافية لكشفها .. وكافية بالتالى لأن أواصل السير بعد أن أحسست أنه ليس بها ما يجذبنى إليها .. أو يغرينى بها .. أو يهيء لى فيها أى نوع من أنواع المغامرة . وبعد أن أيقنت أن المشية والهيئة قد خدعانى – إلى حد ما – هذه المرة .

كان وجهها نحيلا .. شاحباً .. وقد بدت حول عينيها من تجاعيد الإرهاق والذبول .. ما دفع فى نفسى الظن بأن عقدها الرابع ويوشك أن ينفلت .

ودفعنى الكسل وهزال الصيد إلى معاودة الانطلاق بعربتى مفضلا الليل ونسماته الرطبة والاستمتاع بالسرحان والدندنة .

وواصلت السير فى الطريق مخلفاً ميدان السباق ، والعمارات الجديدة المشرفة على ساحته ، عابراً خط المترو الجديد حتى بلغت نهايته وأدرت العربة حول المحطة الأخيرة عائداً فى طريقى من حيث أتيت .

ومرة أخرى .. بدا لى الشبح فى خطواته العجلى ومشيته الجادة الصارمة .. وسط الفراغ العريض والسكون الشامل .

وأدهشنى استمرار المرأة فى السير بلا هدف واضح .

فقد كنت أتوقع أن تكون قد اختفت فى إحدى الدور التى لا شك تقصد إليها .

ولم تكن فى سيرها مستعرضة ، ولا كان الطريق الخالى بميدان صيد . . حتى أظنها امرأة ليل تبغى صيداً . . ولا كان الوقت الذى تسير فيه أو المظهر الذى تسير به يدفعان إلى الظن بأنها تمارس نوعا من الرياضة .

وعادت غريزة الرجل وحب الاستطلاع والرغبة فى المغامرة توقظ حسى وترهف أعصابى . . وكنت قد أشرفت عليها . . وأوشكت أن أجاوزها . . دون أن أستقر على أمر أو اتجاه .

وبلا خطة موضوعة . . أو تفكير مرتب . . أو هدف واضح . . أوقفت العربة . . وفتحت الباب . . وفى لهجة جادة مقتضبة قلت لها :

— تفضلى .

ولم أشك فى أنى قد فاجأت المرأة بدعوتى . . بل بمجرد وجودى . . وقفت تنظر إلىّ على ضوء العربة الداخلى الذى أضاءه فتح الباب . . وقد بدت مشدوهة مأخوذة . . ومرت لحظة صمت . . حاولت خلالها أن أضع خطتى للحظات القادمة وردودى للاحتمالات المنتظرة . . ووسائلى لمقاومة التمنع المحتمل .

ولكن المرأة فاجأتنى مفاجأة أشد، وبلا كلمة تمنع . . أو سؤال استفسار . . وفى ثانية واحدة . . كانت تستقر على المقعد بجوارى دون أن يختلج فى وجهها عصب أو تفتح شفة .

وسمعت صفقة الباب . . وساد السكون . . وعم الصمت إلا من صوت أنفاسها تتلاحق لاهثة كأنها جواد فى سباق .

وسرت بالعربة . . ومضت برهة . . كان كلانا يشرد ببصره من زجاج النافذة إلى الظلمات المترامية . . وكان علىّ أن أفيق من المفاجأة . . وأن أقول شيئاً . . ألم أكن الصائد صاحب الدعوة ؟

وكانت أقرب الألفاظ إلى شفتى . . كلمات التحية . . فقلتها . . أكتسب بها الوقت . . وأتمالك أعصابى . . وأستعيد طبيعتى المغازلة المرحة ، فقلت :

- مساء الخير .

والتفتت إلىّ وبدا لى أنها ترقب وجهى . . وكأنها تريد أن تتحقق من ملامحى . . أو كأنها تتحقق مما إذا كنت أهلاً لرد التحية قبل أن تنطق بها .

وأخيراً قالت :

- مساء الخير .

ولم تكن كلمات الغزل قد لانت على شفتى بعد . إذ لم أجد بها ما يدفعنى إلى الغزل المخلص الطبيعى . . ووجدت رغبتى فى الاستطلاع تسبق قدرتى على الغزل المجامل المتكلف فقلت متسائلا :

— إلى أين ؟

وببساطة أجابت :

— أحضر العشاء .

« عشاء !! » وكادت تنفلت منى صيحة دهشة .. أسرعت فى كبتها . . ولم يكن فى مظهرها المحترم ولا فى الساعة التى تسير فيها . . مايبرر خروج سيدة مثلها لإحضار عشاء ، وسألتها فى لهجة غير مصدقة :

— الآن ؟ تحضرين العشاء ؟

— أجل . . لقد عدت فلم أجد فى البيت طعاماً .

— وأين البيت ؟

— فى إحدى العمارات المطلة على السباق .

— ولكن ألم تكونى تعرفين أنه لايوجد فى البيت طعام ؟

— إنى أنسى هذه الأشياء . . لا أذكر شيئاً عن البيت إلا عند عودتى إليه .

مخلوقة عجيبة . . ورد أعجب !!

وعدت أتساءل . . دون أن أتنبه إلى أن المرأة الغريبة قد حوّلتنى من صائد ليل مغازل . . إلى وكيل نيابة محقق .

قلت لها :

– ولماذا لم ترسلى أحداً من البيت يحضر لك عشاء ؟

– لأنه لا يوجد معى أحد .

وطرقنى ردّها طرقة مثيرة . . لقد بات أمرها سهلا ، من حيث المكان ، فهى تقطن وحيدة . . ويمكننى أن أعود معها إلى بيتها .

وكان علىّ أن أتولى إحضار العشاء .. وبحثت فى ذهنى عن محل أبتاع منه . . دون أن أسلك طريقاً مطروقاً يعرضنى وإياها للأبصار . . وقبل أن أستقر على رأى سمعتها تقول :

– من فضلك اتجه يساراً .

وكنا قد بلغنا الشارع الجانبى الذى يلف يساراً حتى ينتهى إلى شارع سان استفانو المليء بالمارة والحوانيت .

وأجبت متردداً :

– لماذا ؟

– لأحضر العشاء.

– سأحضره لك أنا من محل أعرفه .

– لاداعى لأن تتعب نفسك . . يوجد بقال على الناصية لى عنده حساب .

وحاولت أن أجادل ولـكنها أصرّت . . فلم أجد بدأ من الذهاب إلى حيث تريد .

ووقفت بهـــا أمام البقال وهبطت من العربة لتعود بعد لحظات وقد حملت معها بضع لفائف صغيرة .

ومرة ثانية استقرت بجوارى وقلت متسائلا :

ـــ أتعودِ إلى البيت ؟

وترددت لحظة قبل أن تجيب متسائلة :

ـــ ألا تحب أن تلف بالعربة برهة ؟

ـــ أجل . . أجل . . كما تشائين .

وأدرت العربة مرة أخرى إلى شارع السباق وانطلقت أجول بها متبعاً الطرق الخالية فى أطراف الضاحية .

وبدا عليهـا الشرود وهى تستقر بجوارى فى هدوء وصمت ولم تعد أنفاسها تتلاحق لاهثــــة ، بل بدت عليها السكينة ، والطمأنينـة والاستقرار .

وكان علىّ أن أوالى بقية تحقيقاتى . . لأستفسر منها عما غمض علىّ .

قلت أستدرجها من شرودها وأقطع عليها صمتها :

ـــ أتعيشين وحدك ؟

ـــ أجل .

ـ ألست متزوجة ؟

ـ لا .

ـ ألم تتزوجى ؟

ـ تزوجت وطلقت .. وتزوجت وطلقت .. وقد أتزوج وأطلق . . وأن الزواج فى حياتى من الحوادث العابرة وليس من الأحداث المقيمة .

ـ أليس لك أهل ؟

ـ لى . . ولكننى أفضل أن أقطن وحدى . . إنى أعمل فى الفن . . أقوم ببعض الأدوار الثانوية فى السينما والمسرح وأحياناً أعود فى الليل متأخرة . . وأحياناً سكرى . . ولا أحب أن أقلق راحة أهلى أو أسىء إليهم . . ولذلك أفضل السكن وحدى .

ولم يكن هناك شك بعد هـذا . . أن المرأة صيد سهل ميسور .. زواج وطلاق .. وفن .. وسكن وحدها ، وسهر ، وسكر . . كل هذا . . ترك المسألة كما يقولون « على بلاطة » .

ولكن المشكلة لم تكن مشكلة السهولة واليسر .. بل كانت مشكلة القابلية والإثارة .

إن المرأة لم تثرنى من اللحظة الأولى . . بوجهها الشاحب المرهق ، وهزالها البادى ، ولقد ظننت أن التلاصق والحديث

قد يمنحنى شيئاً من الإثارة ، ولـكن مشاعرى لم تثر بأكثر من الشفقة والعطف .

ومع ذلك . . وبدافع من العناد . . والإصرار على إتمام المغامرة وجدتنى أسائلها :

ــ ألا نعود إلى البيت ؟

وبلهجة الاستسلام والرضوخ أجابت :

ــ أمرك .

ووقفت أمام باب البيت ، ووجدتها تجمع اللفائف لحملها فقلت :

ــ عنك . . دعينى أحملها لك .

ــ لاداعى للتعب . . سأحملها أنا .

ــ ألديك مايمنع من الصعود معك ؟

وصمتت . . ومضت بهـا برهة وجوم وتفـكير وما لبثت أن تساءلت :

ــ أتصر على الصعود ؟

ــ إذا لم يكن لديك مانع .

ــ أبداً . . لا مانع لدىّ . . فقط . . أخشى لغط البواب والسكان وأكره أن يقولوا أنى أحضر رجالا

فى البيت ، فانتظر حتى أتأكد أن البواب قد نام وأن الطريق خال .. وسألوّح لك بضوء ثقاب من وراء النافذة الكائنة فى أعلى الدار .

— وإذا لم أر الضوء ؟

— يكون من الخير أن تنصرف .

ودلفت إلى البيت وجلست أرقب النافذة الصغيرة التى أشارت لى إليها .

أى أحمق أنا !! ماذا يدفعنى إلى الزج بنفسى فى مثل هذه المغامرة ؟. أدخل بيتاً لا أعرفه فى منتصف الليل .. مع امرأة لا أكاد أعرف عنها إلا ما حدثتنى به عن نفسها مما قد يكون باطلا مكذوباً .. وقد تكون ذات زوج .. وقد يكون بيتها كميناً لاصطياد المأفونين السذج من أمثالى .. للاعتداء عليهم وسلبهم نقودهم !

ولماذا أفعل كل هذا ؟! من أجل امرأة لا أريدها .. ولا أشعر لها بأية قابلية ، ولم تثر فىّ جارحة .. أو تهيج لى حساً .

يجب علىّ أن أنصرف .. وكفانى هذا القدر من المغامرة . خير لى أن أعود إلى البيت لألوذ بأطراف الأمن والراحة وأجنب نفسى شر الكوارث والفضائح .

ومع ذلك لم أتحرك فكثيراً ما ينطلق تفكيرى فى ناحية ويتبلد تصرفى فى ناحية أخرى .. فأظل مقيداً فى موضعى لا سلطان لتفكيرى على تصرفاتى .

وتعلق بصرى بالنافذة العالية التى بدت وراءها رقعة السماء الداكنة بنجومها المتناثرة وقطعة ضئيلة من القمر تعدو على صفحتها تتف من السحب تحجبها تارة وتبرزها أخرى .

وفجأة لاح لى الضوء الباهت يتحرك وراء النافذة ، وأحسست بأعصابى تتوتر .. وبمشاعرى ترهف ، وتملكنى وهم شاعرى ممتع مثير .

نافذة فى السماء .. وسحب متحركة ، وقمر شاحب ، ووقفة مسترقة فى عرض الطريق المظلم الخالى .

وأخيراً ضوء باهت يتحرك وراء النافذة .

لا .. لا .. إنها مغامرة ممتعة .. أياً كانت المرأة التى سأغامر من أجلها .

ويبلاهة المغامرين .. طرحت مخاوفى فى عرض الطريق واندفعت أصعد السلم .

وبدأت ألهث عندما وصلت إلى الدور الرابع .. فتوقفت وأنا لا أجد أمامى سوى سلم ضيق يؤدى إلى السطح

ولم أكن واثقاً بالضبط من عدد أدوار البيت . . كل ما كنت أعرفه أنها تقطن فى الدور الأخير وأن نافذتها مطلة على الشارع .

ووقفت برهة حائراً وأنا أجد الأبواب أمامى موصدة دون أن أعرف بابها . . ولم يكن من المعقول أن أغامر بطرق أحدها خشية أن أخطىء بغيتى وأفضح نفسى فى مثل هذه الساعة من الليل .

وأنقذنى من حيرتى همسة استدعاء آتية من السطح ورفعت بصرى فوجدت وجهها يطل من أعلى السلم الصغير .

وصعدت السلم فأفضى بى إلى حجرة صغيرة فوق السطح .

وأحسست بشئ من الخذلان والخيبة وأنا أرقب الحجرة المتواضعة بمظاهر الفقر والرثاثة البادية منها ، وحاولت جهدى أن أخفى مظاهر خيبتى وأن أسترها بمظاهر المرح المفتعل .

وسمعتها تتمتم فى استحياء وهى تقدم لى مقعداً من الخيزران:

ـ أنا متأسفة . . الحجرة لا تليق بك . . ولكنك أنت الذى أصررت على الصعود .

وزاد اعتذارها الخجل من إحساسى بالشفقة عليها . . وصممت على ألا أخذلها وأن أجعل من مرحى المتكلف مرحاً أصيلا . . فقلت ضاحكا :

ـ إنها مكان شاعرى لطيف .

ورمقتنى فاحصة ، ثم أطلقت من أنفها ضحكة قصيرة ساخرة وأجابت :

ـ إنك أنت المجامل اللطيف .

وخيمت على وجهها سحابة معتمة كبتت دوافع المرح فى نفسى وأوقفت كلمات التهريج التى أوشكت على الاندفاع من شفتى .

ومدت يدها إلى الدولاب الوحيد الموجود فى الغرفة فأخرجت « زجاجة ويسكى » قد امتلأ نصفها ووضعتها على المنضدة الخشبية الصغيرة بجوار اللفائف التى أحضرتها من البقال وقالت متضاحكة :

ـ لعلك لا تمانع فى مقاسمتى الزجاجة . . إنى فى حاجة إليها كلها ، ولكنى على أتم استعداد للتنازل لك عن نصفها .

ـ إنى لا أشرب .

ـ غير معقول !

ـ ولماذا ؟

ـ مغامر مثلك يطارد النساء فى منتصف الليل . . ويتبعهن إلى خدورهن . . ثم لا يشرب ؟ ! خذ لك كأساً .

ـ حقيقة لا أشرب .

ـ إذاً أصنع لك فنجاناً من الشاى ؟

ـ لا لزوم له .

ـ أو فنجاناً من القهوة ؟

ـ لا داعى للتعب .

ـ إذاً تشاركنى عشائى ؟

وسارت إلى باب صغير يفضى إلى دورة مياه ، وما لبثت أن عادت ومعها بضعة أطباق أخذت تفرغ فيها اللفافات : جبنة وزيتون ، ومرتدلا ، وطرشى .

ودرت ببصرى فى أنحاء الحجرة .. فوجدت خليطاً عجيباً من البوهيمية والرثاثة والفوضى .

فراش ما زالت أغطيته مشوشة من نوم الليلة السابقة ، ووسائد بدت عليها آثار الرأس بقذارتها الدهنية جلية واضحة ، وفردة شبشب مقطوعة ، وأعقاب سجائر ، وزجاجات ويسكى وبيرة ونبيذ فارغة .. ومشجب تراكمت عليه مختلف أنواع الثياب النسائية : روب حريرى ، وكورسيه ، وفستان أزرق ، وعلى الأرض بجوار الفراش كوم آخر من الملابس وأعقاب السجائر والصحف والمجلات .

وبجوار الفراش والمشجب استند الدولاب على الحائط

بمرآته المشروخة وضلفه التى لا تغلق وأحشائه المطلة بخليط عجيب من الثياب والأوراق والزجاجات ، وتتوسط الحجرة سجادة ناحلة استقرت عليها المنضدة الخشبية وأحاطت بها بضعة مقاعد من الخيزران ومقعد كبير متهالك منهار ، ووسط هذه الفوضى والرثاثة بدا الشىء الوحيد المعتنى به فى الحجرة والذى لم أجد لوجوده مبرراً ولا معنى وهو رف للكتب وضعت عليه عدة كتب مرصوصة بعناية .

وسألتها مستوضحاً :

ـ يبدو لى أنك تقرئين كثيراً ؟

ـ إن القراءة هى الشىء الوحيد الذى أدمن عليه دون أن ينالنى منه سوء .

وكانت قد انتهت من رص الصحاف ورأيتها تمد يدها إلى المشجب فتتناول القميص والروب وتتجه إلى الباب الصغير الذى أحضرت منه الطباق قائلة :

ـ دقيقة واحدة . . أبدل ملابسى . . إنى أحب أن أجلس معك على راحتى . . ألديك مانع ؟!

ـ أبداً . . افعلى كل مايحلو لك ، لاتقيمى لوجودى وزناً .

ـ معك حق . . ما دمت قد غامرت بإحضارك هنا . . فليس لى أن أخشى بعد ذلك شيئاً . . ليس لدىّ أسوأ مما ترى .

ولم يكن هناك فى الواقع أسوأ مما أرى ، فلا أظن المرأة قد أدخلت فى حسابها قط . أن رجلا سيزورها فى حجرتها .. فالمرأة التى تتصيد رجلا لتقدم له جسدها لا يمكن أن تعرض عليه كل هذه الخفايا المنفرة التى تحرص فى العادة على إخفائها .

ولقد قلت أنى من بداية الأمر لم أحس للمرأة بأى قابلية وأنى كنت أرجو أن تثيرنى المغامرة نفسها ، ولكن جو الحجرة بكل ما فيه من فوضى وقذارة ورثاثة قد قضى على كل ما يحتمل أن تثيره فى نفسى خلوتى بامرأة ، واندماجى فى جو المغامرة .

واختفت المرأة لتبدل ثيابها وبدأت أجد أن مهمتى التى كانت فى مثل هذه المواقف — تنحصر فى استدراج المرأة — قد باتت تنحصر فى كيفية التخلص منها دون أن أجرح مشاعرها أو أولم نفسها .

وعادت إلىّ قائلة فى مرح :

— أما زلت تصر على ألا تشاركنى الزجاجة ؟ سأضطر إذاً أن أشربها وحدى . وإذا سكرت فأنت المسئول .. تفضل .. كُلْ على ما قسم .

ولم تكن لى قابلية للطعام . ولكنى خشيت أن أولمها

برفض مشاركتها إياه فاقتربت بمقعدى من المائدة وتشاغلت بالأكل .

وبدأت الخمر تتدفق من الزجاجة إلى الكأس .. ومن الكأس إلى حلقها .. ورفع الشراب ستار الكلفة والاستحياء الذى كان يسدل عليها وفك عقدة لسانها ، فاندفعت تثرثر فى خفة مستحبة ومجون لذيذ ، وأخذت تروى النوادر عن عملها فى المسرح والسينما وتحكى عن حياتها وراء الكواليس ، ومغامراتها مع المنتجين والمخرجين .

وظللت أجد فى حديثها تسلية ومتعة حتى بدأت الكأس تثقل عليها وأخذت تخبو رويداً رويداً ذبالة المرح التى أشعلتها بضعة الكئوس الأولى ، وبدأت تغمرها موجة من الحنين الحزين .. وكف لسانها عن الثرثرة ليستعيض عنها بالتنهدات والآهات وبدت عليها هيئة العشاق السكارى .

وهنا أحسست أن مشكلتى قد بدأت تتعقد .. وأن علىّ أن أبدأ مهمتى الشاقة فى التخلص منها دون أن آخذها أو أولها .

وقرعت المائدة بكأسها ومدت ساقيها وألقت برأسها إلى الوراء وأطلقت تنهيدة حارة ، ثم سمعتها تهمس فى شبه أنين :

— دنيا ؟!

ووجدت أن عليّ أن أقطع سلسلة التنهدات ، وأن أحسر عنها موجة الحزن المرهفة التي تعقب في نفوس السكارى موجة المرح .

وقلت ضاحكا :

— سأروى لك آخر نكتة سمعتها .

ورفعت إليّ رأسها فوجدت في عينيها عبرتين وعادت تقول في صوت خافت وكلمات بطيئة متقطعة :

— بل سأروى لك أنا أول مأساة عرفتها .

ومدت يدها فوضعتها على ظاهر يدى وأطبقت كفها عليها ثم رفعتها إلى شفتيها ومست باطنها في رفق .

وأحسست بأنفاسها تلهب أصابعى .. ووجدت أن المسألة تتطور سريعاً . . وأن عليّ — ما دمت لا أريد المغامرة — أن أضع حداً لها .

وسحبت يدى . . فسقطت يدها على المنضدة .. وقلت وأنا أهم بالوقوف :

— يبدو أنك متعبة . . وأظن من الخير أن أنصرف ، وأدعك تستريحين .

وانتفضت كأنما لسعتها عقرب وتساءلت وقد فغرت فاها :

ـ تنصرف ؟! لماذا ؟

ـ الوقت متأخر . . وأنت متعبة .

ـ أنا لست متعبة . . إنى فقط سعيدة ، وأنا أبكى عندما أكون سعيدة . . إجلس أرجوك .

وجلست . لقد كان علىّ أن أحتمل .

وعادت المرأة المخمورة ، الباكية من فرط السعادة ، تواصل سلسلة تنهداتها السعيدة . . وتهمس إلىّ فى صوتها المبحوح :

ـ ألم تذق الحب ؟

ـ ذقته مراراً .

ـ مراراً ؟! أنت إذاً لم تذقه . . إن الحب لا يذاق إلا مرة واحدة . . إما أن ترديك صريعاً . أو تبعثك حياً .

ـ وماذا فعلت بك أنت ؟

ـ أردتنى صريعة بالطبع .. لم تدع لى سوى هذا الحطام الذى تراه .

وخشيت أن تطلب منى أن أبعثها حية فقلت لها مستضحكا :

ـ أنت مازلت بخير . . إنك فى أوج صباك .

ـ صباى ؟! كم تعطينى من العمر ؟

وأنا خبير بعمر النساء . . أعرف أنه لا يمكن أن يتعدى الثلاثين .. ولا بعد مائة عام ، وأنهن يعقدن على هذا السن

فلا يتجاوزنه أبداً . . وأعرف كذلك أنهن جميعاً تزوجن في الثالثة عشرة ، وأنجبن الإبنة الأولى فى الرابعة عشرة .

وقلت لها لكى أقطع عليها خط الجدال :

— ثلاثون عاماً ؟

— انقص عامين .

— ثمانية وعشرون؟

وهزت رأسها موافقة . . وهززت رأسى مسلماً . لم يكن هناك وقت ولا داع للجدل حول عمر المرأة الهاذية .. لتكن فى الثامنة عشرة إن أرادت . . المهم هو أن تتركنى أنهض ، وهممت بالنهوض مرة أخرى عندما أحسست بكفها فوق كفى وسمعتها تهمس :

— كنت فى الثالثة عشرة .

وتوقعت أن تقول « عندما تزوجت » ثم تردف بالجملة الطبيعية « وأنجبت ابنتى الأولى فى الرابعة عشرة » ولكنها خذلتنى وقالت :

— عندما أحببت .

وكان علىّ أن أستسلم لسماع قصة حبها . . الذى أرداها صريعة . . وتركها حطاماً . . واستمرت تتحدث فى صوتها الخافت وتنهداتها المتقطعة :

– وكنت وقتذاك . . على النقيض مما ترانى . . كنت سمينة . . سمينة جداً . . وكانت أمى فخورة بسمنتى . . كأنما كانت تثبت بى قدرتها على التغذية . . أو كأنما كنت لديها وزة أو بطة ، ولم تكن سمنتى كطفلة شيئاً مزعجاً . . بل كانت أمراً مستحباً . . وكنت طفلة نموذجية إذ كان وجهى جميلا متورداً ، وأنت تدرى قيمة سمنة الجسد وحلاوة الوجه فى الأطفال . . ولكن هذه السمنة المستحبة بدأت تنقلب أمراً بغيضاً ، ولاسيما أنها أخذت تزداد عاماً بعد عام ، وبدأت أضيق بسمنتى . . بعد أن بلغت الثالثة عشرة . . ودخلت فى دور المرأة . . ورغم ضيقى بها لم أكن أجدها شيئاً مخيفاً . . حتى أحسست بالحب .

– أحسست بالحب ، وأنت فى الثالثة عشرة ؟

– أجل .

– أهذا هو الحب الذى حطمك ؟ ! إنه عبث صبية .

– انتظر حتى أروى لك . . كان يقطن على مقربة منا ، وكانت بين أمى وأمه صداقة جيرة ، وأحببته أنا . . أحببته حباً حقيقياً . . وليس عبث صبية كما تقول . . وأحب هو أختى النحيلة . . النحيلة بالنسبة لى طبعاً . . أو ربما لم يحبها . . بل عبث معها . . ما سميته أنت عبث صبية . . ولم يحاول أن

ينظر إلىّ فقد كان جسدى السمين . . لا يمكن أن يجعل منى أكثر من مادة للفكاهة والضحك . . وطويت مشاعرى فى صدرى . . وكانت كتل الشحم الراسخة عليه . . أسمك من أن تشع عاطفة أو إحساساً . . كنت يائسة منه يأساً مطلقاً . . زاده ما سمعته من أمه . . من أنه يكره السمان . . ويحب الفتاة الخفيفة كالفراشة .

وتستطيع أن تتخيل أية عقد ركبتها السمنة فى نفسى . . ولا سيما وأنا أسمع فى كل آونة من أمى هذه الجملة التقليدية « لو وضع وجهك على جسد أختك . . لكونّتما أجمل مخلوق فى العالم » .

وكان وجهى جميلا حقاً . . ولكن ماذا يمكن أن يجدينى وهو على هذا الجسد الهائل . . لقد كنت على استعداد لأن أمنحه لأختى .. أو لأى مخلوق إذا استطاع أن يأخذ معه هذه الكتل الشحمية التى ترسب علىّ .

وسمعت من أمه ذات مرة أنه قال إن وجهى جميل . . فبدأت أحدق فى المرآة .. وأحسست بشئ من الاعتزاز به . . ونفذت إلى نفسى بارقة أمل لأول مرة .

إن هناك ما يعجبه فىّ . . وأنا أستطيع أن أفوز بحبه . . لو حطمت هذا السد الكائن بينى وبينه ، أعنى : جسدى .

وهنا بدأت معركة هائلة . . بينى وبين جسدى . . أو على وجه أدق . . الكتل الشحمية المرصوصة عليه .

وصممت على أن أكسب المعركة . . فقد كنت أشعر أنها معركة فى سبيل حياتى .

وسافر هو وقتذاك فى بعثة إلى أوربا ، وأحسست بشئ من الغبطة ، وبدا لى أن سفره كان تدبيراً من عند الله حتى أخلو بجسدى فى المعركة . . وحتى أفاجئه عند عودته بمخلوقة أخرى . . تكون أهلا لحبه .

واندفعت فى المعركة . . بجنون وقسوة . . وبغير رفق ولا هوادة ، ولست أريد أن أثقل عليك بالتفاصيل . . المهم هو أنى كسبت المعركة . . والدليل الواضح هو هذا الهيكل الذى تراه أمامك . . انتصرت . . ولكن بثمن . . ثمن ضخم . . كاد يكلفنى حياتى .

لقد أعيانى « الرجيم » الحاد . . والإجهاد المضنى . . وبدأت كتل الشحم تنهار ، وتنهار معها قواى ، وعند ما بدأت أجنى ثمار المعركة وأختال بجسدى الضامر النحيل . . خررت صريعة . . بعد أن أصبت بنزيف فى الرئة . . عرضنى للإصابة بالسل . . وكاد يدمر حياتى .

وصمتت المرأة وبدا عليها الإعياء وانتظرت أن تقول

شيئاً عن نتيجة انتصارها . . عن الهدف الذى من أجله دخلت المعركة . . عن الربح الذى كانت ترجوه ، والثمن الذى كانت تأمل فيه .

وطال صمتها حتى اضطررت إلى أن أستحثها قائلا :

— وصاحبنا .. ماذا فعلت معه ؟!

ورفعت كتفيها وأطلقت من أنفها ضحكتها القصيرة المريرة الساخرة :

— لا شىء . . لا شىء أبداً . . عند ما عاد . . كنت أرقد صريعة الداء . . وكانت جيرتنا قد انتهت منذ فترة طويلة . . ولم يكن لديه أقل فكرة عنى . . كنت بالنسبة له شيئاً مجهولا ، وعند ما شفيت من الداء — إن كنت قد شفيت — طوتنى أعاصير الحياة . . تزوجت وطلقت . . وتزوجت وطلقت . . واندفعت ألاطم أمواج العيش . . فلم يبق منى أكثر مما ترى . . لقد ضاع انتصارى فى المعركة سدى ، وذهب ربحى فيها هباء .

ومدت يدها مرة أخرى لتضعها على يدى ، ولكننى سحبت يدى ونهضت . . كانت الساعة قد بلغت الثانية وكان علىّ أن أعود إلى البيت .

ورأيتها تتطلع إلىّ فى جزع متسائلة :

ـ إلى أين ؟

ـ أظن الوقت قد حان للعودة .

ونهضت متساندة إلى المنضدة ونظرت إلىّ نظرة راجية :

ـ ألا تبق قليلا ؟

ـ سآتى إليك مرة أخرى .

وكنت قد وصلت إلى باب الحجرة وفتحته مصمماً على الخروج . . ومددت يدى أصافحها مودعاً . . وأمسكت بيدى لا تريد أن تتركها ، وهتفت فى توسل أليم :

ـ ألا تريدنى ؟

وأحسست أنى أذللت المرأة باضطرارها إلى عرض نفسها . . وخيل إلىّ أن خير ما أفعل هو أن أعوّضها بالنقود . . وأن أدفع لها ثمن ما كان يجب أن أفعله .

ومددت يدى فأخرجت بضع ورقات مالية ، ثم دسستها فى يدها .

وبدا عليها ألم مروّع كأن الأوراق جمرة لسعتها ، ووجدتها تطبق عليها بعصبية وتدفعها إلىّ وتهمس :

ـ أهذا هو الثمن الذى أقبضه بعد طول انتظار ؟

وفجأة . . وكما يبرق وميض البرق . . بدت لى فى ملامحها الشاحبة الهزيلة . . صورة قديمة باهتة لوجه سمين متورد

ممتلىء .. وجه طوته الأيام ومحاه الزمن .

وتذكرت بيتنا فى حى السيدة .. والصبية الصغيرة السمينة التى لمحتها فى دارنا مرة أو مرتين .

وأحسست بأنى أكاد أتهاوى فى موضعى ونظرت إلى الطير الجريح وهو يترنح أمامى وقد بدت فى عينيه نظرة عتاب أليم ، وانساب الدمع من مآقيه .

وشددت على يدها فى صمت مشدوه دون أن أجسر على أن أقول شيئاً .. وانحدرت على الدرج كالهارب من شبح ، أو العائد من جنازة .

وعندما وصلت إلى الطريق رفعت رأسى ، فوجدت شبحها فى النافذة العالية تلوّح بيدها فى بطء وقد أحاطت بها الرقعة الداكنة والنجوم المتناثرة وقطعة القمر المختفية وراء السحب .

وانطلقت بى العربة وأنا أطبق على عجلة القيادة بيد ، وباليد الأخرى أطبقت على الأوراق المعادة .. أو على الثمن المرفوض .



دموع فى ليلة حمراء

كانت بداية ليلة حمراء . . وكل شيء بدا معداً بمهارة وذوق وإتقان ، وقد تعاونت مركبات الحجرة من عطر نفاذ ، وموسيق ناعمة ، ولهب حار يتراقص فى جوف المدفأة ، وضوء خافت ينبعث من مصباح أحمر أنيق . . تعاونت كل هذه المركبات . . بالإضافة إلى الأنثى الساخنة المتعطشة المتأهبة . . على خلق جو أحمر حار يرهف الحس ويؤجج المشاعر ، ويدفع الدماء حارة فى العروق . . ويهمس أو يصرخ . . فى غير تحفظ ولا حذر بأن فعلا ما — مما يسمونه منكراً — على وشك أن يحدث .

وكانت تجلس متربعـــة على أريكة منخفضة فى ركن الحجرة وقد شمرت كمى وساقى بيجامتها الصوفية الفضفاضة المخططة . . التى تعوّدت أن تسرع بارتدائها بمجرد أن تعبر قدماها بابه . . بعد أن تنزع عنها جميع ملابسها .

وكان يجلس متكئاً برأسه على كتفها ممدداً ساقيه على الأريكة . . وأحس بأصابعها تعبث فى شعره وبأنفها يمس رأسه وبشفتيها تهمسان :

— أحب رائحة شعرك .

ولم يجب ، ورفع شفتيه فألصقهما بشفتيها فى قبلة قصيرة ،

ثم عاد يحملق فى اللهب المتراقص .

ومرة أخرى عادت تهمس فى حرارة :

ـ إنى أحبك . . حباً كامناً فى أعماقى . . أكتشفه كلما خلوت إلى نفسى وحاولت سبر أغوارها .

ومرة أخرى لم يحرك شفتيه .. بالكلام ولا بالقُبَلْ . .

وطال الصمت فعادت تهمس متسائلة :

ـ وأنت ؟

ـ إنى أعزك . .

ـ ومن تحب إذن؟

ـ لا أحب أحداً . . أو أحب التى معى ساعة أن تكون معى .

ـ هذا ليس حباً .

ـ هذا خير لى من الحب . عندما يحب الرجل عشر نساء .. يمتلك العشر .. وعندما يحب واحدة تمتلكه الواحدة .

ـ إذن فليس هناك من تمتلك ؟ !

ـ أجل .

ـ إن فى هذا لى بعض العزاء . . وبعض الأمل فى أن أمتلكك يوماً .

وساد الصمت مرة أخرى ومدت يدها فتناولت كأساً

من فوق المنضدة ، ورشفت منه رشفة . . ثم أعادته . . وتساءلت فجأة :

— ألم تحب يوماً ؟ ! ألم يمتلكك أحد ؟ أأمضيت حياتك هكذا . . لا تحس بنعمة الامتلاك ؟ ! أتجلس على قارعة الحياة . . لا تعرف سوى الإيجار . . إيجار نفسك وإيجار الغير ! ؟

وضحك وقال وهو يرفع إليها عينيه :

— الإيجار يمنحنا نعمة الحرية . . ومتعة التغيير والتبديل والانطلاق ، وقتما نشاء وحيثما نشاء .

— ومتعة الاستقرار والسكينة والطمأنينة . . والحب ؟ ! ما رأيك فيها ؟ . . لقد كنت أظنك من قراءتي لك . . لا تفعل شيئاً سوى الحب . . عجيب هذا التناقض بين ما نتوهمه في الكتاب وما نجدهم عليه . . أمعقول أنك — مع كل ما كتبت — لم تحب أبداً ؟ ! لا بد أن تكون إذن مخادعاً كبيراً !

ولم يجب ، وبدا في صمته كأن الحديث لا يعنيه فهمست به عاتبة :

— لماذا لا تجيب ؟ حدثني عن الحب ؟

وحوّل إليها بصره ناظراً إليها في شيء من الدهشة وقال

متسائلا :

ـ ماذا بك الليلة ؟

ـ إنى أحبك ، وإذا كنت لا تريد أن تبادلنى الحب . . فبادلنى أحاديث الحب . . ألم تحب ؟

وعاد يحملق فى اللهب المتراقص وبدا عليه شرود حزين وأجاب فى لهجة مقتضبة وصوت خافت :

ـ أحببت مرة .

ـ حدثنى عنها . . متى ؟ وكيف ؟

وبدأ كأنما ينفض عن نفسه شبحاً جثم عليه وقال وهو يمد يده ليتناول كأسه ويهم بالنهوض :

ـ دعينى من هذا . . سأروى لك آخر نكتة .

وأحاطته بذراعيها وأبقته حيث كان وقالت فى إصرار :

ـ لا أريد أن أسمع نكتاً . . اجلس وحدثنى عن الحب . .

وأحس بأصابعها تعاود العبث فى شعره وبأنفها يتشممه وبشفتيها تتسللان إلى جبينه وعينيه ، وغمرته بموجة حنين جارفة أثارت فى نفسه شجناً كامناً وذكرى هاجعة ، ووضع الكأس جانباً وأخذت الألفاظ تنساب من شفتيه بطيئة هامسة كأنما يحدث نفسه :

— بدأت الصلة بيننا بالكتابة .. وكانت تقطن إحدى بلدان الساحل ، وقرأت رسالتها أول مرة ضمن عشرات الرسائل التى يحملها البريد إلىّ طالبة صورة أو إمضاء أو كتاباً أو إجابة لبضعة أسئلة أو حلا لمشكلة .. ورددت عليها فى بضع كلمات مهذبة مهدياً إياها الصورة أو الكتاب — لست أذكر — الذى طلبته ، وردت علىّ — كما ردّ علىّ سواها — شاكرة فى رقة .. واسترسلت تعبر فى بضعة سطور عن إعجابها بى وتقديرها لى .. ولم تكن فى هذا أيضاً تفترق كثيراً عن العشرات غيرها .

وتبادلنا بضعة رسائل تقدير من جانبها وشكر من جانبى ، وبدأ التقدير يتطور إلى أكثر من تقدير ، وبدأت الرسائل تطوى فى خلال سطورها كلمات الصداقة والأخوة .. والصلات الروحية وغيرها من التعبيرات التى لا يفصلها عن الحب سوى خيط دقيق .. أو التى يستغلها الحياء للتعبير عن الحب .

وحتى هذه التعبيرات لم تميز صاحبة الرسالة عن العشرات غيرها فقد كانت كلها تحمل مثل هذا التطور ، وكان علىّ أن أجيبهن جميعاً كصديقات صغيرات عزيزات .. ولقد كنت أحس لهن كذلك فعلا ، فكنت حريصاً فى ردّى على ألا

أفرط فى الرقة . . فأمنحهن أملا أحمق أو إفراط فى الجفوة فأصدهن صداً موجعاً .

وحملت إلىّ إحدى رسائلها أمنيتها فى أن ترانى قائلة : إن تلك قد باتت أقصى أمانيها وأنها لابد مع الزمن أن تنالها . وحتى هذه الأمنية لم تستطع أن تميز صاحبة الرسالة فقد حملتها إلىّ غيرها من الرسائل .

وأنا أعرف نفسى جيداً . . أعرف أنى لا أستحق شيئاً من هذا كله ، ولم أملك إلا أن أضحك من نفسى ساخراً . . أن تكون رؤياى قد أضحت أمنية . . لكائن من كان . . فما بالك بهؤلاء الصغيرات العزيزات اللاتى أحب أنا نفسى رؤيتهن !

وهيأت لى الظروف فرصة السفر إلى بلدتها . . ووجدتها فرصة سانحة لأن أراها هى وغيرها من أصحاب الرسائل المعجبة اللاتى يقطن نفس البلد ويتمنين رؤيتى . فأرسلت إليهن أنبئهن بقرب قدومى إليهن .

وكان علىّ إما أن ألقاهن جملة فى موعد أحدده لهن فى الفندق الذى أنوى النزول فيه . . أو ألقاهن فرادى ، كل فى موعد مختلف ، وكان لكل طريقة عيوبها ومزاياها . فالأولى تفضل الثانية فى أنها توفر علىّ الوقت والجهد فى الحديث ، والثانية توفر علىّ الحرج فى جمعهن سوياً وفى خذلانهن

عندما ترى كل منهن أنها ليست الوحيدة التى أخصها بالكتابة واللقاء . . وأنها لاتعدو واحدة مجهولة ضمن بقية المعجبات .

وفضلت الطريقة الثانية ، فقد خجلت أن أحيط نفسى فى الفندق بمظاهرة فتيات . . ووجدت أنى أول من سيحس بالحياء والحرج أمامهن .

واخترت منهن خمساً . . كنت أحس من كتابتهن شيئاً — حرارة أو لطفاً أو رقة — يميزهن عن غيرهن ويجعلهن أقرب إلى نفسى .

وكانت هى . . ضمن هؤلاء الخمس . . اللاتى كتبت إليهن أنبئهن بقدومى وأحدد موعد اللقاء .

ولم يكن لدىّ من الفراغ سوى أمسية واحدة كان علىّ أن أقسمها بينهن ، فحددت المواعيد الخمسة بفاصل ساعة تبدأ من الرابعة بعد الظهر وتنتهى فى التاسعة . . وقدرت ألا يزيد لقائى مع أية واحدة عن نصف ساعة تاركاً ربع ساعة بين رحيلها ووصول الأخرى حتى لا يحدث ارتطام بينهن .

وذهبت إلى البلدة وأتممت أعمالى بها ، وقبيل الرابعة فى الأمسية الموعودة اتخذت مجلسى أمام منضدة فى ركن التراس

المطل على الشاطىء وكنت قد كتبت ورقة بأسمائهن وأمامها موعد لقاء كل منهن حتى لا أخلط بينهن .

وكنت أعرف سلفاً أى نوع من الفتيات أوشك أن ألتى ، ولم أحاول أن أخدع نفسى فأمنيها بمتعة منتظرة . . بل أقنعتها بأنها تؤدى واجباً لابد من تأديته . . ولم أكن أتوقع قط أن أبصر بهن أى نوع من أنواع الجمال والإغراء . . وأكثر من هذا كنت أعرف أنه حتى مزاياهن — من خفة أو لطف أو شاعرية أو رقة — التى تبدو من خلال رسائلهن ، سيذهب بها الحياء والارتباك الذى سيصيبهن عند أول لقاء لى . . وأن علىّ أن أمضى نصف الساعة التى سأجلس خلالها مع كل منهن فى دفعهن إلى الحديث وفى خلق موضوع له .

وحلت الرابعة — موعد قدوم الأولى — وأنا أرقب مدخل التراس ، محملقاً فى كل قبيحة صغيرة مرتبكة ، معتمداً على أن تعرفنى هى فتتجه إلىّ .

ومضى ربع ساعة ولم يحضر أحد . . ونصف ساعة ولم يحضر أحد . . وبدأت أسترخى فى مقعدى مخرجاً الأولى من حسابى ، تاركاً لنفسى فرصة ربع ساعة راحة قبل أن أبدأ فى انتظار الثانية .

ولكن . . لم يكد يتجاوز العقرب النصف ببضع دقائق . . حتى لمحت فتاة تجتاز المدخل ووجدت أعصابى المسترخاة تتوتر ، وإحساسى يرهف . . وأخذت أرقبها جيداً .

ولم أتوقع قط أن تكون إحدى المقيدات فى جدول مواعيدى .. إذ لم يكن ينطبق عليها الكثير من المقاييس التى فرضتها عليهن والصور التى تخيلتها لهن . . حقيقة كانت إلى حد ما صغيرة . . وإلى حد ما . . مرتبكة مترددة ، كمن تبحث عن شىء . . ولكنها لم تكن قبيحة أبداً . . بل كانت جميلة . . الجمال الأمثل الرقيق الذى يمس شيئاً فى أعماقى . . والذى أشعر أن كل حواسى قد شدّت إليه .

وأخذت أرقبها . . ليست مراقبة منتظر موعداً . . أو متوقع لقاء . . بل مراقبة ملهوف مأخوذ . . متناسياً كل شىء عن معجباتى وعن جدول مواعيدى . . وتطايرت منى كل مظاهر الكبرياء والغرور الذى كان يفرضه علىّ الموقف فرضاً .

ورأيت خطواتها تتباطأ وعيناها تبحثان فى حيرة بين المناضد ووجدت الحمق الصبيانى الذى لا أستطيع التخلص منه يدفعنى إلى أن أتمنى أن تكون إحداهن . . وأن أذهب

إليها لأقول لها إنى أنا هو أنا . . وقبل أن أراجع حماقتى الصبيانية كانت عيناها — فى جولتها الباحثة — قد وصلتا إلى الركن الذى أجلس فيه . . والتقتا بعينى . . وفى ثوان معدودات تصاعد الدم إلى وجهها ، وافتر ثغرها عن ابتسامة جميلة وتلألأت عيناها بفرحة ممزوجة بدهشة . . ثم وجدتها تتجه إلىّ فى خطوات سريعة وجلة .

ونهضت أتلقاها فى لهفة أطاحت بكل ما رسمته فى ذهنى من سمات التؤدة والهيبة التى كان يجب علىّ أن ألقى بها معجبي . وشدّت على يدى ، وما زالت تعلو ثغرها الابتسامة الحلوة الخجلة . . وقالت لى :

— لم أكن أتوقع أن أميزك بهذه السهولة . . إنى أشعر أنها ليست المرة الأولى التى أراك فيها . . لقد عرفتك بمجرد أن التقت عيناى بعينيك . . وأنت . . أعرفتنى ؟

وقلت وأنا أقدم لها مقعداً وأجلس قبالتها . . محدقاً فى وجهها :

— طبعاً عرفتك . .

ولم أكن مدعياً فى قولى . . فقد أحسست أنى عرفتها من الصورة المرسومة فى باطنى منذ عشرات السنين .

ورمقتنى بعينيها الحلوتين الباسمتين وقالت مازحة :

— من أكون ؟

ولمحت الساعة فى معصمى . . كانت الخامسة إلا ربعاً . . وأحسست أنى قد أسقط فى يدى . . من تكون ؟ الأولى . . أم الثانية ؟ . . كوثر . . أم بثينة . . الاحتمالان جائزان ، فقد تكون كوثر متأخرة فى موعدها . . أو بثينة مبكرة فيه .

ولو قلت لها هذه وكانت تلك . . أو تلك وكانت هذه . . لجرحت مشاعرها . . وأظهرت أنى لا أتوقع مجيئها هى . . بل كنت أنتظر أخرى . . وأنى أخطأت فيها . . وتحتم عليها الرحيل لتترك مجالا للأخرى التى قلت اسمها .

وكرهت أن أفقدها بعد أن أقبلت علىّ بمثل هذه اللهفة ، وبعد أن أقبلت أنا عليها بلهفة أشد وكأنى لا أنتظر سواها .

وكانت لم تزل تنظر إلىّ فى ابتسامتها الرقيقة ، وقد بدت عليها أقصى مظاهر الرضاء والسعادة .. وعادت تتساءل :

— لم تقل من أكون ؟

وكان علىّ أن أقول شيئاً لا يفضح أمرى ، وأن أستدرجها فى الحديث ، علها تفصح فى أقوالها عمن تكون .

وقلت محاولا اكتساب وقت يمنحنى فرصة التفكير :

— أتعتقدين حقاً أنى لا أعرف من تكونين ؟

ومرّ بذهنى أن خير طريقة أعرفها بها هو أن أعرف

منها حقيقة موعدها ، فإذا كان الرابعة فهى كوثر ، وإذا كان الخامسة فهى بثينة .

وقبل أن تجيبنى أردفت قائلا :

ــ كيف لا أعرفك . . أليس بيننا موعد ؟

ــ أجل . . لقد تأخرت عليك . . وكنت أخشى ألا أجدك .

ــ أتتأخرين دائماً فى مواعيدك يا كوثر ؟

وأحسست بموجة من السعادة تغمر وجهها وأنا أنطق باسمها . . ولم يكن من العسير علىّ أن أعرفه وأغامر بنطقه بعد أن اعتذرت عن التأخير ، فأيقنت أنها لابد أن تكون فتاة الرابعة « كوثر » . . ولكنى أحسست بمشكلة جديدة تطل برأسها بيننا .

كانت الساعة قد بلغت الخامسة إلا الربع ، ولم يبق سوى ربع ساعة على الموعد الثانى ، وإذا كانت فتاة الرابعة قد تأخرت نصف ساعة فليس هناك من يضمن لى أن فتاة الخامسة لن تأتى مبكرة عن موعدها . . ولاسيما بعد أن بت أتمنى تأخيرها ، والأقدار تأبى دائماً أن تنيلنا ما نتمنى .

وتملكنى قلق وحيرة ، فقد كرهت أن يحرمنى مخلوق ــ أياً كان ــ من هذه الأمنية العذبة الجالسة أمامى . .

وأحسست أنه لا توجد على ظهر الأرض قوة تستطيع أن تنزعها مني بعد بضع دقائق .

ووجدت هذا الشئ الذى أثارته فى أعماق .. يملؤنى رغبة فى أن أفر بها بعيداً .. وتلفت حولى وأشرت إلى الجرسون ، وبدل أن أطلب لها شيئاً نقدته حسابه عما طلبت وبمنتهى البساطة ، وبمنتهى الحمق وقلة الذوق نهضت قائلا :

— المكان مزدحم .. (ولم يكن مزدحماً) .. ألديك مانع من أن نتمشى على الشاطىء .. أو نذهب إلى أى مكان آخر ؟

ويبدو أن فرحتها بلقائى كانت على استعداد لتغطية كل مساوئ وتصرفاتى غير الطبيعية ، فقد رأيتها تتبعنى فى استسلام وما زالت يكسو وجهها الإشراق والسعادة والابتسامة المتلألئة .. وأحسست بالراحة تملأ نفسى وأنا أسير وإياها متلاصقين على رمال الشاطىء .. ووجدتنى أستعيد رسائلها فى ذهنى .

كانت أرقهن قولا ، وأحرهن مشاعراً وأجملهن روحاً ، وأشدهن صلة بى واجتراء فى الحقوق علىّ ، ولم أكن أشك — من سابق تجاربى — فى أنها لا بد أن تكون أقبحهن شكلا .. فقد علمتنى التجارب أن جمال البعد غالباً ما يتناسب

تناسباً عكسياً مع جمال القرب ، وأن الله يوزع المزايا على الناس بقدر .. اللهم إلا قلة شاذة يتجمع فيها الفضل كله أو السوء كله .

وتحدثنا كثيراً ، ولم يصعب علىّ أن أزيل عنها الرهبة الأولى ، وأن أجعلها تؤمن بسهولة .. بعد أن كانت – على حد قولها – لا تصدق أنها معى وأنها تسير بجوارى جنباً إلى جنب .. بأنها أصبحت أقرب الأصدقاء إلىّ .

فعلت هذا بلا جهد ولا كلفة .. لم أتكلف سوى أن تركت نفسى على سجيتها . وليس أسهل على نفسى من الانطلاق على سجيتها عند ما أكون بجوار شخص أحبه ، ولقد أحسست من اللحظة الأولى التى رأيت فيها هذه المخلوقة .. أنى أحبها .

وأنا على مرّ السنين .. وعلى ما يفرضه علىّ السن من تؤدة واحتشام .. لا أستطيع أن أنتزع نفسى من طفولتى وصباى فى لحظات انسجامى مع من أحب ، فانطلقت مع الحلوة الرقيقة المرهفة السائرة بجوارى أمرح وأضحك خارجاً عن كل قيود الكلفة والتزمت داخلا فى نفسى الشاعرة الذائبة .

وقلت لها الكثير ، وقالت لى الكثير .. حدثتنى عن أمها وأبيها وأخواتها ومدرستها وزميلاتها ، ثم عند بدء قراءتها

لى وكتابتها إلىّ وأحاسيسها نحوى .

وكان البحر قد اقتضم الشمس وأخذ فى ابتلاعها على حافة الأفق ، وامتدت يد الظلمة لتمسح بقايا الدماء المنتشرة فى الشفق . ودون أن نشعر وجدنا الظلام يحوطنا فيما أحاط . . واستقر بنا المقام على حافة صخرة يتطاير من حولها الرذاذ ويتلاطم الموج . . ورأيتها ترفع إلىّ وجهها وعلى شفتيها ابتسامتها المشرقة وهى تتساءل فى استحياء :

– لم تقل لى حتى الآن . . كيف وجدتنى ؟

– لم أقل لك حتى الآن ؟ . أحقاً تعنين سؤالك هذا ؟

– أقلت لى ؟ !

– لم أقل بلسانى . . ولكن ألم تحسى أنت كيف وجدتك ؟ ! أبعد أن نسيت نفسى . . ونسيت كل ما حولى وأخذت أسير معك كصبية العشاق تسائلينى كيف وجدتك ! ! لقد كان مفروضاً ألا يزيد لقائى لك عن نصف ساعة أعتذر لك بعدها بأنى على موعد ، ثم ألتقى بعدك أربع معجبات أخريات ، ولكنى لم أكد أراك حتى اختطفتك وفررت بك إلى هنا . أعرفت الآن كيف وجدتك ؟

وبدا على سيمائها التأثر وأطبقت شفتيها على ابتسامتها الدائمة . . وسمعتها تهمس فى سرور وقد أطرقت برأسها

وحدقت أسفل الصخرة :

ـ عجيبة هذه الأحلام !

ـ كيف ؟

ـ لقد حلمت ليلة أمس أنى معك . . كان حلماً لذيذاً ماقضيت فى حياتى لحظات أمتع منه .

ـ قصّيه علىَّ . . لعلِّى أحققه لك .

ورفعت رأسها وارتسمت على شفتيها ابتسامة مستحية وقالت فى حياء لذيذ :

ـ لا أستطيع . . إنى أخجل أن أقصه .

ـ أين كنا ؟

ـ فى حديقة دارنا ، وقد أتيت تسأل عن عنوان مجهول . . فعرفتك ، وادعيت أن عنواننا هو ما تريد ، وتحايلت على إدخالك . . وجلست معى فى الأرجوحة الكائنة أسفل حجرتى والتى تعوّدت أن أقرأ فيها كتبك ، وعندما اعترفت لك بخدعتى قلت إنك تعرفها وأنك تريدنى أنا ، وكان الليل مخيما ، والسكون سائداً ، والقمر مطلا ، وجلسنا نقرأ سوياً . . ثم أدرت لك الموسيقى . . التى كنت أطلب منك فى رسائلى سماعها . وسألتك أن تنهض لترقص معى .

وصمتت مطرقة برأسها ، فعدت أتساءل :

– وبعد ؟ ! أكملي الحلم . . حتى أحققه لك .

– لا أستطيع .

– أنهضت معك ؟ . .

وأشارت برأسها :

– أجل .

– وأمسكت بيدك ؟ . .

ومددت يمناي فأمسكت بها كفها ، ثم عدت أتساءل :

– وضممتك إليّ . .

وأحطتها بذراعي الآخر في رفق ووجدتها تغمض عينيها كالمستغرقة في حلم ، وهي تشير برأسها إشارة خفيفة « أجل » .

وفي صمت وضعت شفتي على شفتيها في مسة خفيفة وبدا لي وجهها في الظلام كأنه وجه قديسة . ومضت برهة قبل أن تفتح عينيها المغرورقتين وتهمس في لهجة ذائبة :

– لست أدري كيف أشكرك . . ما ظننت أن حلمي سيحققه الله بمثل هذه السرعة .

وافترقنا ليلتذاك ، وعدت وأنا محمل القلب بأجمل ما حمل قلب بشر من حب .

واستمر الحب بيننا يزداد على مرّ الأيام . . حب حقيقي كأعنف ما يكون الحب وأحرّ ما يكون الهيام ، وانكمشت

رسائل المعجبين بعد أن تركز كل ردّى على رسالة واحدة . . حارة ملتهبة .

وقد يبدو الحب غير متكافىء الكفتين ، وقد يثير الدهشة والعجب ألا يسقط ماهر محنك خبير بالنساء مدرع بتجاربه ضد فتنتهن سوى طفلة بريئة عاطلة من كل قدرة وخبرة . . ولكنى أعتقد أن هذا الشىء يجب ألا يبعث على الدهشة . . فلست أرى هناك مقاييس معينة يمكن أن نخضع لها الحب . . بل يبدو لى أن المسألة على النقيض ، وأن أخطر أنواع النساء ، وأشدهن تأثيراً على الكتاب والفنانين وأصحاب التجارب هن أشدهن سذاجة وبراءة وبساطة .

على أية حال . . لست أجد هناك ما يدعو للمناقشة ، أو التبرير ، أو الاعتذار . . فالأمر قد وقع . . ولم يكن هناك مفر من التسليم بالواقع . وبدأت أدبر أمرى وأنظم حياتى على أساس حالتى الجديدة .

حالة إنسان محب جاد فى حبه مخلص لمن يحب . . وبدأت بعد عمر طويل من العبث واللهو . . تصيبنى حالة من الزهد والقناعة . . وتساقطت الرفيقات من حولى كما تتساقط أوراق الشجر . . واستطاعت الفتاة الصغيرة أن تدفع عنى من الخطايا ما عجزت عنه نذر السماوات وعظات الرسل .

وبلغت بى الجدية فى مشاعرى إلى الحد الذى هانت علىّ فيه حريتى . . ولم يعد الزواج فى نظرى مصاباً يتحتم تجنبه وبلية يجب اتقاؤها ، بل وجدت نظرياتى فى الزواج تنقلب رأساً على عقب وإذا بتفكيرى ينتهى إلى أنه خير وسيلة للاستقرار والطمأنينة .

وكنت أذهب للقاء فى كل فرصة تسنح لى . . صيفاً وشتاء . . ولم يتعد اللقاء بيننا صخرة الشاطىء أو ركناً فى أحد مقاهيه . . ولا تعدت علاقتنا . . مسة الشفاه . . التى حققت لها بها أول حلم .

وبدأنا نطرق حديث الزواج طرقاً خفيفاً ، وحاولت هى تجنبه فى أول الأمر ليقينها بما تعرفه عن آرائى وطريقة حياتى أنى أكرهه . . ولقناعتها بما كان بيننا . . وعدم محاولتها التطلع إلى تجاوزه أو الطمع فى أكثر منه .

وزاد حديثنا عن الزواج والعائلة ، وربة البيت والأولاد فى لقائنا ورسائلنا ، حتى انتهى الأمر بيننا إلى قبوله كفكرة ، ثم تأكيده وتحديده كأمر واجب منته .

ولم يبد لنا اندفاعنا فى الحب .. أى نوع من أنواع الموانع تقف أمام رغبتنا فى الزواج .. لا إرادة أهل ، ولا فارق سن ، ولا شىء أبداً .. كل ذلك كان حصى صغيراً أمام تيار حبنا .

وحملنى القطار إليها ذات ليلة . . بعد اتفاق على لقاء يتبعه تقدم لطلب يدها . . وجلست فى عربة القطار أضيع الوقت بمراجعة مقال وبضع بروفات ثم أعدتها إلى الحقيبة وأخرجت بضعة الرسائل التى تسلمتها قبيل الرحيل ولم يسمح لى الوقت بفضها .

ولم أجد بالرسائل جديداً .. نفس الطلبات ونفس الأسئلة ونفس المشاكل . . . حتى توقفت أمام إحداها ومررت بصرى بخفة على بضعة الأسطر الأولى . . ثم وجدتنى أتمهل وتمعنت فى القراءة وقد تملكتنى الدهشة .

إنى أذكر الرسالة كلمة ... كلمة ... لقد كانت كما يلى :

« لا أريد أن أثقل عليك بكلام كثير لا أجد فى النفس الصبر عليه ولا الجهد له . كان يجب أن أكتب إليك من قبل لأمنعك من الاستمرار فى الطريق الذى انتهى بك إلى ما وصلت إليه ، ولكن لم يخطر لى ببال أن العلاقة مستمرة ، وأن طريقاً واحداً ما زال يضمكما سوياً ليؤدى بكما إلى هذه النهاية المذهلة . كل ما رأيته هو رسالة منك إليها تبينت منها أنها رد على إحدى رسائلها ، وأحسست برجفة عندما قرأت إمضاءك .. ولم أملك إلا أن أزجرها عنك ، وآمرها بالكف عما سميته عبث أطفال .

« ما أحمقنى .. كان يجب أن أقول لك أولا من أنا .. ولكننى افترضت أنك تعرفنى كما أعرفك ، أنا الآن – أم كوثر – وأظن هذا تعريفاً كافياً بالنسبة لك .. لأنك لاشك تعرف كوثر جيداً .. تشهد على ذلك كومة رسائلك الملتهبة إليها .

« أظن كوثر قد حدثتك عنى .. وأظنك قد كوّنت فى ذهنك صورة معينة لى .. وإن كنت أعتقد أنه لا يمكن أن تنطبق بحال على الصورة الواقعة لى .. والتى يمكن لو قلبت اليوم ذهنك أن تجدها قابعة ضمن عشرات أو مئات القابعات فيه .

« لست أدرى ما إذا كنت أستطيع تذكيرك بنفسى .. وإن كنت سأحاول .. فإذا فشلت فيجب عليك أن تأخذ كلامى قضية مسلم بها ، فأنا أذكرك جيداً ، لأنك تمثل لى خطيئة واحدة فى حياتى .. بينما أمثل فى حياتك واحدة من آلاف الخطايا .

« لقيتك أول وآخر مرة وأنا حديثة عهد بالزواج فى زيارة لى بالقاهرة . وكنت شديدة التأثر بك وبكتابتك .. تأثراً قد يبلغ حد الوله . ودعوتنى إلى زيارتك لتناول الشاى .. ولم أستطع رفض الدعوة .. وأنا أجد فى لقائى بك شبه معجزة .. وكانت لم تزل أمامى بضع ساعات على

القطار . . وذهبت معك بعد أن ودعتنا واسطة التعارف .

« وضمن وإياك بيتك الساحر لبضع ساعات . لا أعتقد أنك تذكرها . . أو تذكرها كعينة لمئات الساعات المشابهة ، ومع ذلك فما زلت أذكرها أنا بعد كل تلك السنين الطوال كأنها حدثت بالأمس ، أذكر أريكة الركن الخضراء المنخفضة واللهب المتراقص فى المدفأة والأشعة الهادئة المنبعثة من المصباح الأحمر والموسيقى الناعمة . . أذكر كل هذا جيداً ، وأذكر اللوحة فوق المدفأة وأذكرك ترنو إلىّ فى لهفة وأذكر استسلامى بلا مقاومة . . وأذكر بعد هذا أمتع ساعات عمرى .

« وتركتك بغير ندم وإلى غير رجعة ، وأحسست أنى قد ذقت طعم شئ .. كان يتحتم علىّ أن أذوقه ، واعتبرت المسألة تجربة أولى وأخيرة فى سبيل ما يسمونه بالخطيئة .

« ونسيت كل ما كان من أمرى معك . . وصددت نفسى عن القراءة لك خشية أن يدفعنى الحنين إليك مرة أخرى . . وأنجبت ابنتى الوحيدة .. ومرت بى السنون وأنا مثال للزوجة الصالحة والأم المثلى التى لم تشب حياتها شائبة .

« وعندما بدأت ابنتى القراءة لك لم أحاول أن أصدها فقد كنت أجدك ـ مع السنين التى كرت ، والبعد الذى طال ـ

أنأى من أن تكون مصدر خطر حتى وجدت رسائلك إليها وعلمت أنها كتبت إليك فنهيتها عنك .

« ومرت الأيام .. وأنا آمنة مطمئنـــــة .. لم يطف شبحك بذهني مرة واحدة .. حتى وجدت بالأمس .. كومة رسائلك إليها .

« عجيب هذا الذى حدث ! كيف ؟! ومتى ؟! ولماذا ؟! ما الذى دفعك إليها ؟! وما الذى دفعها إليك ؟!

« لقد رأيت صورك ، وقرأت رسائلك ، وعجبت فى نفسى كيف استطعت أن تحتفظ بإشراقة وجهك وفتوّة روحك ، ونضارة قلبك .. إن السنين السبعة عشر لم تغير فيك كثيراً .

« وأدركت ببساطة كيف أحبتك .. ولم يصعب علىّ بالطبع أن أدرك كيف أحببتها .

« إن المسألة فى نظرى لاغبار عليها لا سيما وقد كنت معها – على غير ما كنت مع أمها – مهذباً أميناً .. وقصدت وإياها إلى الطريق الصواب وتعاهدتما على الزواج واتفقتما كما أرى فى آخر خطاب على أن تتقدم لطلب يدها .

« كل هذا معقول .. ولكن ثمة أمر بسيط أريد أن أنبهك إليه . أمر قد تكون خالى الذهن منه .

« لقد حملت فى كوثر فى الشهر الذى لقيتك فيـه ، ولست أستطيع أن أجزم بالضبط من يكون أبوها أنت أم زوجى ؟ ولـكن الشيء الواضح الذى أستطيع أن أجزم به . . هو أنى لم أحمل بعد هذا من أبيها أبداً .

« أنا لا أستطيع أن أجزم بشيء . . وقد يكون أبوها هو أباها . . وقد يكون أصيب بالعقم بعد ذلك . . أجل قد يكون ذلك ، وقد لايكون .

« وإنى لم أفكر فى المسألة سوى اليوم ، وكوم الرسائل أمامى ومن ورائه شبحك يتقدم لطلب يدها . . والشك يكاد يقتلنى .

« لماذا ؟ من بين بقية بنات الأرض ، يقع اختيارك عليها؟!

« لقد عرضت عليك الأمر ، وسواء ذكرتنى أم وجدتنى ضائعة فى غمـار مغامراتك . . فثق أن ماقلت هو الحق .

« وإذا استطعت بعـد كل ما قلت أن تقاوم الشك فتقدم لطلب يدها . . إنى فى انتظارك » .

وانقضت الصاعقة لتتركنى حطاماً عاجزاً عن الحراك والتفـكير ، وأطبقت على رأسى بكفى أمنعه من الانفجار والتطاير . . وأحسست بصوت عجلات القطار المنتظمة كأنها مطارق تهوى علىّ وأحسست من تباطؤ سير القطار بأنه

يوشك أن يصل إلى المحطة . . وودت لو استطعت أن أوقف القطار أو أعيده من حيث أتى . . ولكن أضواء المدينة بدأت تتواتر مؤذنة بالوصول .

ووجدت نفسى قد جمدت فى مقعدى كأنى قد أعجزنى شلل ، ومر الوقت بطيئاً وأنا جاثم لا أتحرك حتى دق الجرس وعلا الصفير ، وبدأت عجلات القطار تدور وأخذ القطار يتباعد فى بطء .

وعلى ضوء أحد المصابيح لمحت وجهها يبحث فى لهفة بين النوافذ ، وفجأة التقت عيناها بعينى وأنا ملتصق بالمقعد فى جلستى الصامتة العاجزة فهتفت باسمى فى صرخة مجنونة وانطلقت تعدو وراء القطار .

وأخذت أرقب شبحها يتضاءل وصرخاتها باسمى تخفت رويداً رويداً حتى غلبتها ضجة القطار وابتلعتها الظلمات .

وساد الصمت . . صمت أليم موجع . . ومد طرف لسانه يلعق دمعة ساخنة مالحة . . انسابت حتى شفتيه . . ولم تستطع صاحبته أن تكبح جماح دمعها . . فتركته ينساب فى غزارة .

وكان هو أول من تمالك نفسه . . ورفع إليها بصره وقال فى مرارة :

— ألم أقل لك . . إن الإبحار خير من الامتلاك .



ليلة حبّ

يكره نفسه ! !

طه يكره منها ذلك الحذر والتردد والضعف ، والخوف كلما أضحت محطاً للأنظار .

لم تكن القدرة هى التى تنقصه . . ولكنها كانت الثقة . . كانت الجرأة والإقدام .

إنه لم يكن عاجزاً ولا ضعيفاً . . وكان يملك الجهد والقدرة ، ولكن هذه القــدرة لم تكن تستطيع أن تتعدى النطاق الضيق الذى يقوم فيه بالتدريب والمران حيث يشعر أنه ليس هناك من يرقبه ، وأن عمله لاتتوقف عليه نتائج حاسمة أو كسب خطير مرتقب .

فإذا ما خرج من ذلك النطاق الضيق وأحس بالأنظار تتطلع إليه . . وبأن على جهوده تتوقف نتائج خطيرة لنفسه أو لفريقه أو لمدرسته . . طارت من نفسه الثقة . . وضاعت القدرة وتبــدد الجهد . . وتملكه الاضطراب والخوف . . وتمنى لو استطاع الفرار من الميدان .

تلك كانت شيمته فى كل عمل يؤديه . . سواء أكان عمله ذهنياً أو جثمانياً . . وسواء أكان امتحاناً دراسياً أو مباراة رياضية .

ما استطاعت نفسه أبداً أن تنصفه أمام الغير .. بل كانت تخذله فى كل مباراة وامتحان ومسابقة .

واتهمه رفاق الطفولة والصبا بالجبن . . واقتنع هو بتهمتهم . . ولم يكن يملك غير ذلك . . وكل الشواهد . . والظواهر تدل عليها وتؤكد وجودها . . وهو يشعر فى قرارة نفسه . . أنه حقاً يفتقد الثقة والجرأة والشجاعة والإقدام .

ودخل الكلية الحربية .

والكلية الحربية — لمن لايعرفها — أشبه بدوامة فى أيامها الأولى . . التى يطلقون عليها . . أيام المستجدين . . والطلبة فيها أشبه بكوم من القش تدور به الدوامة . . لايميز فيها واحد عن غيره . . ولايعرف فيها الطالب رأسه من قدمه ولا بداية يومه من نهايته . . بل تظل الدوامة تلف وكأنها تلعب به « دوخيني يالمونة » فلاتتركه عند نوبة نوم إلا وقد أضحى جسداً هامداً لاتبعث فيه الحياة إلا نوبة الصحيان .

وأضاعت رهبة الكلية ومشقتها والذعر الذى يشيعه صف الضباط فى نفوس المستجدين . . البقية الباقية . . من الثقة التى كان يحتفظ بها لنفسه . . فى نطاقه الضيق . . عندما كان يشعر أنه وحده ليس هناك من يرقبه . . لأنه لم يشعر

قط فى الكلية أنه وحده .. وأنه ليس هناك من يرقبه حتى فى ساعات النوم .

ووجد نفسه .. يتحرك فى دوامة الكلية ضالا نكرة مجهولا .. كأنه فرد فى قطيع متشابه لايميزه مخلوق ، ولايشعر به إنسان .

حتى أحس ذات يوم بأنه ليس مجهولا تماماً .. بل إن هناك – لدهشته الشديدة – من يعرفه ويميزه .

لم يكن مخلوقاً ذا بال .. ولامكانة ولاحيثية ، ولكنه مع ذلك سرّه أن يميزه .. والإنسان النكرة المجهول .. لايدقق كثيراً .. فى حيثية من يمنحه شرف التمييز بين القطيع المتشابه المجهول .

ومع ذلك فلم تدم فرحته بالتمييز طويلا .. عندما اتضح له أن الرجل .. قد منح هذا الشرف جميع زملائه من الطلبة .. وأنه قد ميز القطيع فرداً .. فرداً .

ولم يمنع ضياع فرحته بالتميز .. وسخطه على الرجل الذى أشرك الكل فى التميز والمعرفة وإعجابه المفرط بذكائه ودهشته الشديدة من قوة ذاكرته .

كان معقولا أن يميز الرجل صف الضباط فهم قلة معروفة مسيطرة مميزة .. وكان معقولا أيضاً أن يعاونه بعض الذكاء

المفترض — رغم أميته وتقدم سنه — على معرفة طلبة القسم المتوسط فهم لايزيدون على بضعة عشر طالباً وقد مضى عليه عام وهو يبيع لهم « الاسباتس والسيدر وبقية أنواع الكازوزة ».

كل هذا كان معقولا .. أما أن يميز الرجل دفعة المستجدين بأكملها وقد بلغت الخمسين . . ولم يمض عليها أكثر من شهر فى المدرسة . . فقد كان أمراً بلا شك يستحق كل إعجاب وتقدير .

ولقد وضحت قدرة «الليثى» « اسم الرجل » لصاحبنا عندما اندفع إليه أول مرة وقد استقر بصندوقه الملىء بمختلف أنواع الكازوزة تحت السلم الحجرى المفضى إلى عنابر النوم يرجوه أن يحتفظ « بالبل » حتى يأخذه منه عقب انتهاء الحصة .

و « البل » لمن لايعرفه من غير العسكريين ، هو مجموعتان من الأكياس المزررة توضع فيها الطلقات وتشدان إلى الكتفين بحمالات وإلى الوسط بحزام ويلبسهما الطلبة فى طوابير التمرين على البندقية .

ولم يكن صاحبنا وحده الذى اندفع إلى « الليثى » يرجوه الاحتفاظ بالبل ، فقد اندفع بعض أفراد الفرقة يرجونه نفس الرجاء إذ كانت الحصة تقع بين طابورين ، ولم يكن لدى الطلبة

وقت للصعود إلى العنابر لوضع البل والهبوط إلى الفصل ، ثم الصعود لإحضارها مرة أخرى بعد الانتهاء من الحصة للبسها فى الطابور التالى ، إذ كان المفروض ألا يدخلوا الحصة بها ، وكان الزمن بين الحصص لايكفى للصعود إلى العنابر والهبوط منها .

وكان أكثر ما يقلق صاحبنا وهو جالس فى الحصة ، هو مايخشاه من خلط « البل » .. ولكن لم تكد تنتهى الحصة ويذهب إلى الرجل حتى وجده يسلم كل واحد « بله » بابتسامة مرحبة وكأنه يعرف كلا منهم معرفة وثيقة .

وبدا له أن قدرة الرجل على تمييزهم سببها قلة عددهم ، وأنه استطاع ببعض التذكر أن يعى صورة كل منهم ويعرف أين وضع « بله » ، ولم يعجزه بعد ذلك أن يسلمه له .

ولكن الأمر تكرر بعد ذلك ، واستقرب الطلبة كشك « الليثى » الكائن أسفل السلم . وازداد عدد الطلبة الذين يحتفظون « بالبل » عنده .. ومع ذلك فلم تخن الرجل ذاكرته .. بل كان يأخذ من كل منهم « بله » بابتسامته المرحبة ، فإذا عاد لأخذه سلمه له بلا أدنى تشكك .. بل كان يبدو وكأنه يعرف كلا منهم معرفة وثيقة .

ومرت أيام المستجدين بصاحبنا ، وهو يعدو مع القطيع في الدوامة . . نكرة مجهولا . . لايميزه أحد . . ولا يحترمه مخلوق .. سوى عم « الليثى » .

حتى بدأ الخروج فى عطلات الخميس والجمعة ، فإذا به يجد نفسه مميزاً ، ومعروفاً . . بل وأكثر من هذا مما لايجسر على تحديده بالضبط . . من مخلوق . . أجل وأخطر . . من « الليثى » .

كان مخلوقاً ناعماً رقيقاً . . وعلاقته بالمخلوقات الناعمة الرقيقة .. كانت كلها فيما مضى . . علاقة من طرف واحد ، فما كانت خشيته ووجله وخوفه واضطرابه ، وحاجته إلى الثقة والإقدام تهيىء له أكثر من التطلع والتمنى والهيام المطوى فى الصدر والجوى الخبىء بين الضلوع .

وكان المخلوق الناعم الجديد الذى أحس به وميزه ، وربما أكثر من ذلك . . هى « مديحة » صغرى أختى « رأفت » أعز أصحابه فى الكلية .

رآها أول مرة فى دار صاحبه ، وقد دعاه ذات خميس لسماع أول إذاعة لأنشودة عبدالوهاب « كليوباترا » .

والصوت منبعث فى سكون الليل . . بشعره الرقيق ،

ولحنه العذب ، والناعمة متكئة بذقنها على كفها ومرفقها على ساقها ، وقد مالت فى مقعدها إلى الأمام مأخوذة بالإصغاء . . وقد انعكس ضوء المدفأة الأحمر المتراقص على جانب وجهها فبدا رقيقاً رائعاً بطرف أنفه الأشم وفمه الرقيق المضموم .

وهو موزع المشاعر بين اللحن المنبعث والوجه المصغى وكل ماحوله قد تعاون على إرهاف حسه وإلهاب عواطفه والصوت يردد :

« يا حبيبى ! هذه ليلة حبى

آه لو شاركتنى أفراح قلبى »

وتنهيدة رقيقة تنبعث من صدر الناعمة الحالمة المصغية النشوى .

ولم يكن هناك أعنف من هذا هجوماً على قلب ، ولا أحر من ذلك دعوة إلى حب .

وأحبها صاحبنا . . بكل ما يملك من عجز وخشية وضياع للثقة . . وفقدان للجرأة والإقدام ، ومرّت أيامه حثيثات سراعاً . . وهو مغرق فى حبه السلبى ، وعاطفته المستسلمة العاجزة .

وفى المدرسة بدأت طبيعة خلقه تظهر أشد ما تكون وضوحاً وجلاء . . قدرة فى المران والتدريب . . وعجز فى المباريات والمسابقات . . قوة بينه وبين نفسه وضعف أمام المشاهدين .

وفى كل مرة يحاول التماسك والتجلد والاحتفاظ بثقته فى نفسه وقوته وقدرته . . ولا يكاد يشعر بالأنظار تحيط به ، ويحس بأن عليه تتوقف نتيجة المباراة حتى تتسارع دقات قلبه ، وتتوتر أعصابه ويفقد كل سلطان على نفسه . . ولا يبقى منه إلا إنسان عاجز يكاد يخر جزعاً وإعياء .

وحلّ موعد الحفل العام الذى تقيمه المدرسة آخر السنة وكان أكثر مايخشاه هو حضورها لمشاهدته .

وبدأ الحفل وهو يعلم أنها فيه . . ولكى لانظلمه نقر بأنه بذل أقصى ما يمكن أن يبذله مخلوق للسيطرة على أعصابه والاحتفاظ بقدرته وبثقته فى نفسه . . ولكنه رغم ذلك كان فى مباريات الحفل مثلا للعجز والضعف . . حتى لقد كان فى معظمها السبب الأول لهزيمة فريقه .

وتسلل من الحفل وحيداً . . يائساً . . منهاراً . . وقادته قدماه إلى أسفل السلم الحجرى . . إلى كشك « الليثى » .

وتلقاه الرجل هاشاً مرحباً . . وقدّم إليه زجاجة « سيدر » مثلجة يتصاعد من فوهتها الدخان ، ويعلو صدرها ندى الرطوبة .

وجلس يشرب فى صمت مطرقاً حزيناً . . وحانت منه التفاتة إلى العجوز البادى الرضا والقرارة . . وطاف بذهنه أن يسأله سؤالا طالما تاق إلى الاستفسار عنه . . وهو كيف يحفظ الوجوه بمثل هذه السهولة . . وكيف يميزهم فرداً فرداً ، ويرد إليهم حوائجهم التى يحتفظ بها دون خلط ولا خطأ .

ورفع رأسه ووجه السؤال إلى الرجل .

وابتسم الرجل . . ثم اتسعت ابتسامته حتى كشفت عن بضع أسنان معلقة فى لثته . . ثم انطلقت منه ضحكة طروب وأجاب :

— تريد أن تعرف حقاً ؟

— أجل .

— على أن تبقيه سراً ؟

— أجل . . أجل .

— إنى أميز كلا منكم بظاهرة فيه . . فى وجهه . . فى جسده فى صوته . . فى خلقه . . فى أى شىء يميز به . . وأسميه بهذه

الظاهرة . . فهذا مثلا ذو الأنف الكبير . . وهذا الطويل وآخر ذو الرأسين . . وآخر الجعجاع . . وآخر الأخرس . . والحمار . . والعاقل . . والأنيق . . والمفشكل . . والدّهل . . والحدق . . هذه كلها أسماء أميزكم بها ولا أخطئها أبداً . . فإذا ما أعطانى أحد منكم إحدى حاجياته . . دخلت لوضعها فى الكشك وأرفقت بها ورقة صغيرة كتبت عليها الإسم الذى أميزه به . . فإذا أتى لأخذها رددتها إليه بعد أن أمزق الورقة دون أن يرانى . . وهكذا أبدو كأننى أعرفكم جميعاً . . وأرضى غروركم جميعاً .

ورغم ما كان بصاحبنا من حزن وضيق فقد أطربته إجابة الرجل . . وكان السؤال الطبيعى الذى يجب أن يسأل بعد ذلك . . والذى يرضى به حب استطلاعه هو « وأى ظاهرة ياترى سميتنى بها ؟ » .

ولقد أوشك أن يسأله لولا أن أضاع الفرصة فوج من الطلبة . . أقبل متدفقاً على الكشك وحال بينه وبين السؤال .

ومرّت أيام أخر . . وتخرجت دفعته . . وهو هو . . لايتغير طبعه ولا تتبدل حاله . . حتى كلمة حب . . لم يجسر أن يقدم على قولها . . لمن ولهت قلبه حباً .

ولقد فكر فى خطبتها . . ولا سيما بعد أن خطبت أختها الكبرى وعقد قرانها ، ولكنه لم يتجاوز نطاق التفكير . . لعجزه عن أى عمل إيجابى ، وفقدانه لكل قدرة على الإقدام على شيء ، وضياع الثقة من نفسه . . وأكثر من هذا وذاك ، إحساسه بأنها تعرف فيه ذلك العجز والجبن . . ألم يتأكد لها أمره من يوم الحفل ؟ ! أتراها تحتفظ له بعد ذلك بأى احترام أو حب ؟ !

ورحل مع وحدته إلى فلسطين ، ولم يكن فى قرارة نفسه يخشى الحرب فى حد ذاتها ، ولكن خوفه كان من نفسه . . كان يخشى أن تخذله ، كما سبق أن خذلته ، فى كل عمل أقدم عليه .

ومرت بضعة شهور وهو محتل بجنوده أحد المواقع ، دون أن تسنح فرصة لاختبار أعصابه ، وامتحان قدرة نفسه .

وفى ذات ليلة علم أن العدو قد نفذ من الخطوط وأنه قد احتل إحدى التباب المشرفة على خطوط المواصلات وأنه يهدد بعزل كل المواقع .

وحلت اللحظة الرهيبة ، واستدعى لتلقى الأوامر لكى يسترد بجنوده الموقع الذى ملكه العدو .

وإذا كانت أعصابه . . قد خانته فى ملعب كرة . . أو فى ساحة قفز . . أو فى حلقة ملاكمة . . فقد كان أولى بها أن تخونه فى ميدان قتال . . ولقد خانته فعلا . . فقد عاد إلى مواقعه . . متوتر الأعصاب .. خافق القلب .. شارد الذهن . . ولم يكن هناك مفر من تنفيذ الأمر . . فإن النكوص مستحيل . . ولم يسعه إلا أن يلم جنوده . . ويبدأ الهجوم .

وأجرى المراحل الأولى للهجوم . . بطريقة آلية . . وهو يشعر أن الذعر قد ملك عليه نفسه ! وأن زمام أعصابه يوشك أن يفلت منه . . وأنه لولا بقية من تماسك لأسرع بالفرار .

وبدأت المراحل الجدية للهجوم .

واستمرت قواته تتقدم ، وهو يسير مع الرئاسة فى المؤخرة ، وما زالت نفسه المنهارة ترتجف وتنتفض .

وانطلقت قذيفة من مواقع العدو . . فأطاحت ببضعة من جنوده وأبصر بعينيه أعضاءهم تتناثر فى الهواء كأنها رشاش الماء .

وتوالت القذائف . . ودوّت الانفجارات .

وأحس بالدم يجرى فى عروقه حاراً . . وبمراجل الغضب

والانفعال تغلى فى صدره .

وفجأة . . شعر بأنه فقد نفسه .

أجل . . لقد فقدها تماماً . . بذعرها وخوفها . . وتفكيرها . . وخشيتها . . وانطلق وسط جنوده . . بلا وعى .

وهو لا يذكر جيداً ما حدث . . فقد كان حقاً يتحرك بغير وعى . . كل ما يذكره هو أنه استمر يندفع بجنوده حتى مواقع العدو . . ثم يذكر صوت انفجار بجواره . . ضمن بقية الانفجارات التى كانت تدوى حوله .

وقد عرف فيما بعد أنه أصيب بشظية أصابت ساعده ومزقت كتفه . . ولكنه يؤكد تأكيداً جازماً أنه لم يشعر بها ساعتذاك . . وأنه لم يحس من إصابتها أى ألم .

ورحل فى قطار الجرحى إلى مستشفى العجوزة . . وأدهشه أن يسمع ممن حوله أنه قام بأحد أعمال البطولة الخارقة . . وأنه كان شجاعاً .

ولم يستطع بالطبع أن يكذبهم .

ماذا يقول لهم ؟ أيقول أن كل ما حدث هو أنه فقد نفسه ؟ . أيقول لهم أن أعمال البطولة . . يقدم عليها الإنسان

بلا شعور . . وأنه يفعلها لأنه يجد نفسه لا يستطيع أن يفعل سواها ؟

لا . . لا . . يجب أن لا يخذلهم ويحرم نفسه من التقدير والإعجاب اللذين طالما حرم منهما فيما مضى .

وخرج من المستشفى . . وكل ما يتوق إليه . . هو لقاؤها . . كان يريد أن تراه كما يراه الناس . . فى صورته الجديدة . . كان يريد أن يزيل من نفسها الصورة الضعيفة . . العاجزة . . الخائرة . . والتى يتوهمها عالقة بنفسها .

إنه بحالته الجديدة . . يستطيع أن يقدم على خطبتها وأن يبوح لها بمشاعره . . وهو يجد فى نفسه الجرأة على ذلك .

وفى طريقه إلى باب المستشفى التقى بأحد زملائه الذى أتى لزيارته ولم يكد يراه خارجاً حتى هتف به :

ـ حمداً لله على سلامتك . . إن رأفت « سيخبط مشواراً على الفاضى » . . لقد لقيته الآن . . فى شارع فؤاد . . وأنبأنى أنه سيزورك . . على أية حال سيسر كثيراً لخروجك اليوم . . لأنه كان يود أن تحضر الاحتفال بعقد قران شقيقته فى نادى الضباط . . لقد دعوا عبد الوهاب لإحياء الليلة ، وهو يعلم أنك تحبه .

ولم يسمع من كل ما قال صاحبه . . سوى جملة « عقد قران شقيقته » . . لقد كانت السهم الذى مرق فى صدره ، والانفجار الذى دوى فى أذنيه .

أبعد كل هذا .. يفلت الطير ؟! يا لها من سخرية !

وانطلقت العربة به تعدو على غير هدى . . وعند ما عاد فى النهاية إلى البيت . . أكدوا له وقع المصاب بقولهم : إن رأفت أتى لدعوته . . لحضور قران شقيقته . . فى نادى الضباط .

وأقبل الليل . . وبنفس يائسة منهارة ، وذهن شارد ذاهل . . ارتدى ملابسه ليشيع أمله . . إلى مثواه الأخير .

واجتاز بعربته كوبرى « أبو العلا » وهو لا يكاد يبصر ما أمامه . . وانطلق فى شارع الزمالك ثم دلف من بوابة النادى ووضع العربة فى حشد العربات المصطفة .

وبدا النادى مضيئاً متلألئاً ، ونغمات الموسيقى تتردد فى أنحاء الحديقة ، وأحس من كل تلك المظاهر إمعاناً فى السخرية . . ووجدها تنعكس فى نفسه وكأنها النواح والعويل .

واجتاز مدخل النادى ، وعلى يسار المدخل أبصر

الغرفة الصغيرة التى تحفظ فيها الكابات والعصى والمعاطف ، ومد يده فرفع الكاب من فوق رأسه وسلمها إلى الحارس العجوز الواقف وراء الحاجز الخشبي ، ولم يتمالك نفسه من الدهشة عندما وجد الحارس هو نفسه « الليثى » بائع الكازوزة فى الكلية .

وسبقه العجوز إلى التحية والترحيب ، وتسلم الكاب دون أن يعطه رقماً يتعرف به عليها عند استردادها . . ولم يستطع هو أن يجزم بحقيقة ترحيب الرجل به . . أهو قد عرفه حقاً وميزه . . منذ أن كان طالباً . . أما تراها مجرد مخادعة كعادته ، وأنه لا يلبث أن يكتب صفته المميزة . . ويضعها فى الكاب .

على أية حال لم يملك إلا أن يبادل الرجل ترحيباً بترحيب ، ووقف ينصت مجاملا إلى بعض أحاديثه عن أيام المدرسة ، واستطاع الرجل ببشاشته وإفراطه فى الترحيب أن يقنعه بأنه يذكره تماماً .

وخطا إلى الداخل وكان المكان يعج بمن فيه . . فتسلل بين المدعوين واتخذ لنفسه ركناً قصياً . . وجلس يرقب المكان فى صمت وشرود وبنفسه إحساس من يجلس فى سرادق عزاء ينتظر خروج النعش بين آونة وأخرى .

وفجأة بلغ مسامعه هتاف باسمه ، وأصابته من الصوت رجفة شديدة . . فقد ميز فيه - على طول الفراق - صوتها .

وتلفت فإذا بها تقف بجواره ترنو إليه بنظرات ملؤها اللهفة والشوق .

ونهض يحييها فى كلمات متحشرجة وهو يشعر بغصة فى حلقه ويسألها قائلا :

ـ كنت أظن أنى سألقاك فى ثوب العرس ؟

وأجابته فى دهشة :

ـ ثوب العرس . . لى أنا ؟

ـ أجل . . ألن يحتفل اليوم بعقد قرانك ؟

ولم تستطع أن تكبت ضحكة انطلقت من شفتيها :

ـ . . قرانى أنا . . إنه قران أختى سميحة .

ـ سميحة ! ! ولكننى أعلم أن قرانها قد عقد قبل أن أسافر فلسطين .

ـ لم تحدث قسمة فافترقا قبل الدخلة وقد خطبت ثانية واليوم عقد قرانها الثانى .

وأحس بأن الميت الذى أقبل لتشييع جنازته . . قد عاد إلى الحياة . . وخيل إليه أنه يوشك من الفرحة . . أن يجن .

وسنحت الفرصة ثانية . . ولم يكن هناك سبيل للتردد والانتظار والخشية والرهبة .

وهمس بها وأنفاسه تتلاحق وكأنما يخشى أن تضيع الفرصة مرة أخرى :

ــ اسمعي يا مديحه . . أريد أن أحدثك على حدة فى أمر هام يخص كلينا .

وتلفت حوله ثم جرّها من يدها قائلا :

ــ ما رأيك فى جولة قصيرة بعربتي على النيل ؟

ــ الآن ؟

ــ أجل . . هيا بنا نسحب دون أن يحس بنا .

وتسللا من الصالة المزدحمة ، وقبل أن يجتازا الباب مدّ يده لتناول الكاب من « الليثى » ، وهو يحس أنه يوشك من فرط السعادة أن يطير .

وشيعه « الليثى » كعادته بألفاظ الترحيب والمعرفة ، وبعد لحظة كانت العربة تنطلق بالإثنين وقد سرى فى الجو صوت عذب يلاحقهما متباعداً خافتاً رويدا :

« يا حبيبي هذه ليـــلة حبي
آه لو شاركتني أفراح قلبي »

وفى الليل عاد إلى بيته وهو يشعر بالسكينة تملأ قلبه والسعادة تفعم روحه .

وقذف بالكاب على المقعد وخلع ملابسه ، وهو يدندن بأغنيته المحبوبة .

وهمّ بإطفاء النور عندما أبصر فى الكاب ورقة .

يا للرجل المخادع . . إنه ما زال يتبع نفس الوسيلة . . ترى ماذا كتب عنه ؟

لقد آن له أن يعرف صفته المميزة عند الرجل .

ومد أصابعه فالتقط الورقة وقرأ بها :

« الرجل الذى كان جباناً » .

وانطلقت منه ضحكة طروب وهتف لنفسه : الحمد لله على أنه « كان » .



نحيبٌ في الظلام

لم تكن مجنونة بمعنى الكلمة .. ولكن كان بها مظاهر شذوذ عجيبة .. تكاد تجعلها فى عداد المجانين لولا فرط رقتها وهدوئها وسكينتها .

لقيتها أول مرة فى دارها خلال زيارة لها بقصد استئجار الدار فى الصيف ، وكانت تقطنها مع أب عجوز وهن العظم منه فهو لا يكاد يغادر مقعده .

وأحببت الدار لقدمها وفساحة حديقتها وكثافة أشجارها إذ كانت إحدى الدور العتيقة الكبيرة الكائنة فى رمل الاسكندرية بالقرب من زيزينيا ، ولم يدع لى رخص إيجارها مجالا للتردد ، فسرعان ما استأجرتها فى فترة الصيف ونزلنا فى الدار ، وانتقلت الإبنة وأبوها إلى جناح أشبه « بالسلاملك » قائم فى أقصى الحديقة منفصل عن الدار .. ومرت بنا الأيام ونحن نستمتع بالدار والحديقة والشاطىء إلى أقصى حدود الاستمتاع حتى لا نكاد نشعر بأصحاب الدار أو نبصر لهم وجهاً إلا فى النادر القليل .. ولولا ذلك الطاهى العجوز الذى كنا نبصره حاملا سلة الخضار فى ذهابه وأوبته لما أحسسنا أن هناك أحياء يقطنون بجوارنا على قيد خطوات منا .

ولقد كان انطواء الأب العجوز فى داره وقبوعه فى عقرها أمراً لا يستثير دهشاً ، فقد كان الرجل من فرط عجزه يكاد يكون مقعداً . . ولكن ما أثار عجبنا هو انطواء الابنة وإمعانها فى التباعد والاختفاء .

وظننت بادىء الأمر أن انطواءها مرجعه إلى انكبابها على العناية بأبيها ومداومتها على خدمته وقضاء حاجاته . . ولكننى وجدت هذا العذر ـــ بفرض صحته ـــ أمراً مبالغاً فيه لأن الرجل لم يكن مريضاً . . وكل ما به لم يكن يعدو عجز الشيخوخة . . وما كانت حالته بالتى تستدعى منها أن تهجر الدنيا والناس لتربط نفسها بجواره . وأكثر من هذا ، لقد تبين لى . . فى الأوقات المتباعدة التى ذهبت فيها لزيارة الرجل . . أن الإبنة لم تكن ملازمة له . . ولا كانت منكبة على العناية بأمره . . بل إنى لم أحس لها وجوداً . . أو أرى لها أثراً . . وكان الطاهى العجوز . . هو وحده القائم على خدمته المتولى أمره .

كانت الفتاة ولا شك مخلوقة شاذة . . نفورة . . مستوحشة . . ولكن شذوذها لم يكن يعنينا إلا بقدر ذلك العطف الذى أثاره فى نفوسنا عليها . . فلقد كنا نراها فى مظهرها مخلوقة حلوة رقيقة . . لطيفة المعشر مستحبة الرفقة .

أقول إن شذوذها . . لم يكن يعنينا فى كثير ولا قليل ، إذ كان شذوذاً سلبياً . . لا ضرر منه على أحد . . فقد كنا لا نكاد نحس به ولا بها . . حتى حدث ذات ليلة . . وأنا أتقلب فى الفراش مستجلباً الكرى . . أن بلغ مسمعى صوت بكاء أشبه بالأنين . . يحمله نسيم الليل خافتاً من الحديقة .

وأصابنى الصوت برجفة . . فهو بكاء مفاجىء فى وحشة الليل وسكونه . . والبيت كما قلت عتيق فسيح . . والحديقة متكاثفة الشجر .. شديدة الوحشة .. كل ذلك لا يجعل النفس تتقبله بسهولة . . وبغير فزع .

وعدت أنصت . . مرهف السمع . . حاد الأذنين . . ولكن الصوت لم يتكرر . . حتى خلتنى واهماً . . وخلته مواء قطة .

وفى الليلة التالية . . سمعت الصوت .. ولم أكن وحدى الذى سمعته . . بل سمعه نفر غيرى من الأهل الراقدين فى فراشهم .

وأقض الصوت مضجعى . . فقد أحسست منه بخوف مزدوج . . الأول خوفى منه كشىء مفزع . . والثانى خوفى من الأهل الذين سبق أن اعترضوا على سكنى فى مثل هذه الدار الفسيحة العتيقة الموحشة . . والذين سبق أن توجسوا

خيفة من رخص إيجارها . . ولكنهم لم يملكوا سوى القبول أمام إلحاحى .

وفى الليلة الثالثة لم آو إلى فراشى . . فقد كرهت أن أسمع الصوت راقداً مستسلماً وصممت على أن أعرف مبعثه .

وهبطت إلى الحديقة المتسعة المتكاثفة أجول خلالها ، وحمل إلىّ النسيم رائحة أزهار الياسمين الهندى الذى تكاثف على أشجاره المكدسة فى الحديقة .

ولم يكن القمر قد اكتمل وكانت الحديقة تسبح من ضوئه الباهت فى شبه ضباب أغرقها فى غموض ووحشة وروعة . . وأحببت الحديقة فى منظرها السحرى العجيب . . وأمعنت فى السير والتجوال بلا رهبة ولا خشية .. حتى سمعت فجأة . . صوت النحيب .

وفى هذه المرة . . كان جلياً واضحاً محدداً . . لا لبس فيه ولا غموض .

كيف لا . . وقد كان مبعثه على قيد خطوة منى .

وأصابتنى رجفة شديدة . . رغم انعدام عامل المفاجأة فى هذه المرة . . وعلام المفاجأة . . وأنا ما خرجت إلا لأسمعه ؟ ، ورغم أن مصدره لم يكن مجهولا . . ولا غامضاً

لأنى لم أكد أسمع الصوت حتى أبصرت مصدره . ومع ذلك فقد ارتجفت رجفة شديدة .. بل إنى لا أكاد أستعيد الموقف إلى ذهنى لأكتبه . . حتى تصيبنى نفس الرجفة . . وأنا جالس أكتب على مكتبي . . بلا ظلمة ولا وحشة . . ولا أنين ولا نحيب .

لقد أبصرت فى مصدر الصوت . . مخلوقاً لفته الظلمة فجعلت منه مايشبه الشبح . . وكان يقبع على مقعد تحت إحدى الخمائل وقد انحنى ظهره واتكأ بمرفقيه على ركبتيه ودفن وجهه فى راحتيه . . وأخذ يهتز على نبرات النحيب .

أنا مخلوق عصى الدموع جاف المآقى . . لا تدر مقلتى عبراتها بسهولة حتى وأنا واقف أرقب الموتى يهبطون بهم إلى القبور . . ومع ذلك لم أكد أبصر الجسد المهتز فى الظلمة ، وأميز صاحبه .. أو على الأصح صاحبته ..حتى تجمعت الدموع فى مآقى . . وانسابت برغمى . . وبرغم أنى لم أعرف علام تبكى المخلوقة الشاذة المنطوية فى الظلمات .

لقد كنت أعطف دائماً عليها . . وكنت فى قرارة نفسى أرجع شذوذها إلى شىء فى باطنها .. أو فى قلبها . . قد أغلقت عليه صدرها . . وكبتته فى حناياها .

ووقفت برهة صامتاً . . أفكر بسرعة فيما يجب أن

أفعل . . ولم أجد خيراً من أن أنسحب فى هدوء . . دون أن أجعلها تشعر بى . . وبأنى أبصرتها وهى تبكى .

وهممت بالعودة ، ولكن قدمى ارتطمت بحصاة . . جعلتها تتلفت نحوى دهشة فزعة .

ولم أملك إلا أن ألقى عليها التحية فى رقة وعطف .

ولم تجب لأول وهلة . . وبدت كأنها لا تميزنى ، وكان ذهنها لا يعى شيئاً مما حوله . . ووقفت أرقب وجهها فى الضوء الباهت وهو يحملق فىّ جزعاً مرتابا .

وبدا وجهها عجيباً . . بخصلة الشعر المتهدلة على جبينها وأهدابها السوداء الطويلة ، وعينيها الخضراوين تبرقان من وراء الأهداب ، وأنفها الأشم المستقيم وشفتيها الرقيقتين .

ولم تطل بها الحلقة حتى أبصرتها تنهض نافرة فزعة وتشيح بوجهها ثم تولى هاربة منطلقة نحو الدار . ولم أكن أملك إزاء إدبارها وفرارها أن أقول شيئاً أو أفعل شيئاً ، رغم أنى كنت أود لو أستطيع محادثتها والترفيه عن نفسها وإزاحة بعض أحزانها . ولما هممت بالعودة أبصرت على المقعد الذى كانت تجلس عليه حقيبة يد جلدية صغيرة مفتوحة وبجوارها قد تناثرت بضعة أشياء لم أستطع تميزها لأول وهلة .

وترددت برهة فيما أفعله بالحقيبة والحاجيات . . أأتركها على حالها حتى تعود لأخذها . . أم أحملها وأذهب بها إليها ؟

وخشيت إن أنا تركتها أن تعبث بها يد قبل أن تعود لأخذها ، فصممت على أن أجمعها فى الحقيبة وأسلمها لها .

ومددت يدى أجمع الأشياء من فوق المقعد فأدهشنى أن أجدها خليطاً عجيباً متناقضاً لا يكاد يربطها رابط .

كان أول ما عثرت عليه منديل وفرشاة أسنان ، ثم قطعة قديمة من الشيكولاته ملفوفة فى ورقة بيضاء . . وقلم رخيص من الحبر الجاف ، وظرف صغير به بعض زهور البنفسج الجافة ، وماكينة للحلاقة ، وجلدة ساعة قديمة بالية ، وإطار نظارة بلا زجاج ، ومنديل مستعمل لم تمتد إليه يد النظارة ، وبجوار كل هذا مظروف به أوراق مطوية .

ووضعت المجموعة العجيبة المتناقضة فى الحقيبة وسرت إلى بيت الفتاة . . ولكنى وجدته مغلق الأبواب والنوافذ ولم أجد به أثراً لضوء .

ولم أجد من الحكمة أن أطرق الباب وأثير ضجة فى الليل وصممت على أن أعود بالحقيبة إليها فى الصباح الباكر .

وقبل أن يستيقظ مخلوق فى الدار قد كنت ارتديت ملابسى وحملت الحقيبة وسرت فى الحديقة متجهاً إلى بيت

الفتاة ، ولكنى لم أكد أبلغه حتى أبصرتها تنطلق فى عجلة تجاه الخميلة .

وصحت بها فتلفتت إلىّ . . ولوّحت بيدى بالحقيبة فاندفعت نحوى وجذبت الحقيبة فى لهفة كأنها قد استردت حياتها .

وقالت وهى تلهث :

ـ حمداً لله . . لقد كنت أخشى عليها من الضياع .

وأجبت مازحاً :

ـ كان يجب ألا تخشى شيئاً من ذلك . . فليس بالحقيبة شىء ثمين يغرى بسرقتها . . فلا أظن محتوياتها بما فى ذلك قطعة الشيكولاتة القديمة وفرشة الأسنان يزيد على نصف ريال.

ونظرت إلىّ نظرة طويلة ثم انطلقت منها ضحكة قصيرة ساخرة خافتة وأجابت :

ـ إن ما بها لا يقدر بثمن . . إنها روحى . . إنها كل شىء فى حياتى .

وهززت رأسى فى عجب ثم هممت بالعودة عندما صاحت بى فجأة :

ـ هل قرأت الخطاب ؟

ـ لم أقرأ شيئاً . . لقد جمعت بالحقيبة كل ما كان على

المقعد وأغلقتها . . وأعدتها إليك كما هى . . ولكننى أتمنى الآن لو استطعت قراءته .

— لِمَ ؟

— لأنى أود أن أعرف عنك شيئاً . . أود أن أعرف ما بك . . لعلى أستطيع أن أحمل عنك بعض حزنك . . لابد للإنسان من إنسان آخر يتحدث معه ويفضى إليه بهمومه . . ليس هناك أقتل للمرء من ذلك الانطواء وتلك الوحدة . . قد تكونين لم تجدى من يفهمك لكى تحدثيه عن نفسك ولكنى واثق من أنى أستطيع فهمك وتقدير مشاعرك . . حدثينى عما بك ولا تخشى شيئاً .

وأطرقت الفتاة برأسها برهة ثم جذبتنى نحو الخميلة . . ودون أن تنبس ببنت شفة مدت يدها إلى الحقيبة فأخرجت الظرف الذى يحوى الرسالة ثم دفعتها إلىّ قائلة : اقرأ .

وأمسكت بالرسالة وفضضتها وقرأت ما يلى :

« عزيزتى . .

من يصدق أنى قد بت أغار من نفسى ! ؟

من يصدق أنى بت أكره ذلك الشىء فى نفسى الذى طالما تمنيته وتقت إليه . . والذى كنت أهدف إلى الوصول إليه لأجعل منه مثلى الأعلى ؟

من يصدق أنى بت أكره فى نفسى الكاتب العبقرى النابغة . . الذى يقدره الناس ويبجلونه ويعجبون به ؟

إنى أغار منه وأبغضه . . لأنك تحبينه ولا تحبيننى أنا .

لا تقولى إنى وهو واحد . . وإنى أنا هو ، وهو أنا . . لأنى واثق أنك تحبينه هو .

كيف لا وقد أحببتك وحاولت التقرب إليك .. « كأنا » بشخصى الكائن الحى . . المتحرك المنظور الملموس بلا نبوغ ولا عبقرية ، ولا كتابة ولا تأليف . . ولا وهم ولا خيال . . فلم تعيرينى أدنى التفات . . وأعرضت عنى إعراض المهمل المنكر .

« أنا » لم أفز منك بغير الإهمال والإعراض .

فماذا فعلت عندما قرأت لى . . وعرفت أننى كاتب كتبى وصاحب آرائى . . لقد أقبلت علىّ فى لهفة وشوق . . وانقلب إعراضك إقبالا . . وإهمالك اهتماماً ما بعده اهتمام .

وفاز منك « الكاتب » فى شخصى بما لم أفز به أنا . . وبت تقدسيننى وتتلهفين علىّ .

وكان يجب علىّ أن أرضى بإقبالك ، وأن أستغل لهفتك على الكاتب فى نفسى فأتمتع « أنا » بها ، ولكننى وجدتنى أكره إعجابك بكتابتى . . أكره قولك لى : « إن كتابتك رائعة » . . . « إنى أعبد كتابتك » . . كرهت قولك هذا لأننى تمنيت أن يكون « إنك رائع » . . . « إنى أعبدك » .

كرهت قولك لى . . « لا تكف عن الكتابة أرجوك . إنى أريد كتبك دائماً ، أكتب . . أكتب . . إنى لا أتصوّر كيف أستطيع أن أعيش لحظة بغير القراءة لك » .

وكنت أود لو قلت لى : « إنى أريدك دائماً . . ابق معى لأنى لا أتصوّر كيف أستطيع أن أعيش لحظة بغير لقائك » .

كنت أتمنى أن تحبينى أنا . . كآدمى بسيط . . بتفاهاتى . . وسخافاتى . . وماديتى . . بدل أن تحبى فى ذلك الوهم من النبوغ والعبقرية . . والسمو . . كنت أود أن تحبينى كما أحببتك . . وكما يحب كل إنسان إنساناً آخر .

كنت أود أن تتلهفى على ضمى كما أتلهف على ضمك . . وأن تتوقى إلى تقبيلى كما أتوق إلى تقبيلك . . بدل هذا التلهف منك على كتابتى وآرائى وأفكارى .

إنى بشر أولا . . ولقد وددت أن تحبينى كثيراً .

وحاولت التقرّب إليك كبشر . . ولكنك صممت على مبدئك . . وعلى أن تسمى – كما قلت – بنفسينا . . وأن يظل كل ما بيننا صلة روحية ذهنية .

فلما أصررت على مطلبي وعلى طريقتى فى حبى هجرتينى . . ونأيت عنى . . وأرسلت إلىّ تودعينى قائلة :

– أكتب . . أكتب . . إن فى كتابتك عزائى . . وثق أنك فى ذهنى دائماً . . وإنى سأقدسك مادامت بى قدرة على التقديس .

وحاولت عبثاً أن ألقاك . . حتى يئست . . واستقر بى المقام بعد هجرك . . وأنا محطم منهار ولم يك أمامى سوى شىء واحد . . هو أنى أنفذ مطلبك . . فأكتب . . وأكتب .

وأقبلت على الكتابة باندفاع المجنون . . لقد كنت أحس أن فى كل كلمة أكتبها وكل سطر أخطه متعة لك . . وكتبت الكتاب تلو الكتاب . . واندفعت أرقى سلم المجد – دون قصد منى – بخطى حثيثات سراع . . حتى أحسست أنى قد استنفدت كل قواى . . وأنى بلغت قمة المجد . . ونهاية العمر .

إنى متعب منهك . . ولقد أمرنى الأطباء بأن أكف عن

الكتابة . . ولكنى لن أكف – من أجلك – حتى أكف عن الحياة .

لن أكف حتى أكتب قصتى الأخيرة ، فإنى أكتبها لك وحدك . . ولا بد أن أتمها . . لقد انتهيت منها أخيراً وأنا أشعر أنى بت من النهاية قاب قوسين أو أدنى .

وليس أمامى سوى أن أكتب لك هذه الرسالة لأودعك فيها . . ولأقول لك : إنى كتبت وكتبت لا لمال . . ولا لشهرة . . ولا . . ولا . . ولكن لأجلك أنت . . أنت وحدك . . عابدة كتابتى . . ومقدسة نبوغى وعبقريتى .

ليتك تحبين فىّ « الإنسان المتواضع . . الطيب الهادىء . كما أحببت الكاتب النابغة العبقرى . . ليتك تحبيننى . . مرة واحدة . . كبشر » .

ليتك تحبيننى « أنا » . .   « المخلص »

ووضعت الرسالة جانباً ونظرت إلى الفتاة فى دهشة بالغة . . وقلت لها متسائلا :

– وهل ذهب حقاً ؟

– أجل لقد ذهب . . ليته كان يعرف . . ليته كان يعرف أنى أحبيته كبشر . . أكثر مائة مرة منه ككاتب . . لقد كنت أتوق إلى ضمه وتقبيله وإلى أن أتحسس شعره

يدى .. ولكنى كنت أجد حبه كبشر . . حب يائس لا أمل فيه لأنى كنت مقيدة إلى مخلوق آخر .. ولم تكن هناك فرصة للفكاك . كنت أحبه كبشر . . ولكنى لم أجد هناك فائدة من حبه . . فصممت على أن أحبه ككاتب . . فقد خيل إلىّ أن هذا شيء مستطاع يمكن أن يدوم العمر . . وصممت على أن أجعل الصلة بيننا صلة روحية ذهنية ما دامت الصلة الجسدية قد استعصت وتعذرت . . وقلت لنفسى إنها ستكون صلة أبقى على الزمن وأكثر دواماً .

ونأيت بنفسى عنه . . وظللت أتعزى عنه بكتبه وأحيا معه بين السطور والكلمات . . فى دنيا من الوهم . . وعالم من الخيال . . حتى قرأت قصته الأخيرة . . التى أفنى فيها نفسه . . ثم وصلتنى رسالته . . وعلمت بعد هـــذا أنه ذهب .

وهنا أحسست أن صبرى قد عيل واحتمالى قد نفد . . وأنه لم يعد فى طاقتى الاحتمال . . ولا فى استطاعتى أن أحيا كبشر مع رجل غيره .

أجل . . إننى لم أحس بحاجتى إليه . . كبشر ، إلا بعد أن ذهب .

وانطويت على نفسى . . متلمسة العزاء عنه . . فى بقاياه

التافهة . . فيما كان يسميه ماديات بشرية . . إنه لم يعد يمتعنى فى الحياة شىء . . أكثر من أن أتلمس فرشاة أسنانه . . أو أتحسس جلدة ساعته . . أو أمسك بقطعة من الشيكولاتة كان قد قضم منها بعضها وأعطانى النصف الآخر فاحتفظت به .

لقد حرمت على نفسى أن أحيا معه . . وكنت أقنعها بالصلة الروحية . . عندما كان حياً . . يلمس . . ويضم .. فلما ذهب . . أحسست بعمرى قد ذهب هباء .. وضاع سدى . . ولم أعد أستطيع أن أحرم نفسى من أن أضم كل ما مسته يداه أو لفحته أنفاسه.



موعد فى الليل

هذه قصة مزحة لم تعد فى أول أمرها أن تكون أكذوبة قصد بها التفكه والتندر .. ولكن الظروف دفعتها أمامها ونفخت فيها فانتفخت وتضخمت وظلت تتسلل بها الحوادث حتى انتهى بها الأمر فصارت قصة هى أبعد ما تكون عن أذهان أصحاب المزحة .. عندما اختلقوها فى بادىء الأمر .

رأيت الفتى — بطل المزحة أو بطل القصة — أول مرة فى ذلك « النادى » الذى اعتدت أن أقضى به سويعات مرحة ضاحكة مع بعض الأصدقاء حيث أنقل البصر بين وجوه الحسان اللاتى تناثرن هنا وهناك .. وكان يجلس فى ركن من أركان « الصالة » الفسيحة المزدحمة وقد دفن رأسه فى كتاب بيده لا يحول عنه بصره .

وكان الفتى أقرب إلى الدمامة .. بوجهه الأصفر النحيل وأنفه الحاد الشبيه بمنقار البجعة ، وبتلك الأسنان الصفراء البارزة المدببة ، وذلك المنظار السميك الذى يكاد يلمس صفحات الكتاب الذى فى يده .. وتعودت أن أراه بعد ذلك فى نفس المكان وفى نفس الوضع لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، ولا ينطق بحرف .. ولا يرفع رأسه عن صفحات

الكتاب . . وكنت أحس له فى نفسى شىء من النفور . .
وأغلب ظنى أن هذا هو الشعور الذى كان فى نفس كل من
يراه . . ولكن حدث ذات يوم أننى وجدت نفسى مضطراً
إلى الجلوس إليه ومحادثته . . فقد كانت القاعة خلواً إلا
منه ومنى . . ووجدته يبتسم لى ابتسامة خفيفة فاضطررت
إلى مجاذبته أطراف الحديث . . وأعجبنى حديث الفتى ، فقد
كان به رقة وطلاوة ، وكان صوته ذا رنة محببة إلى الأذن
فزال ما فى نفسى من نفور . . وتوثقت عرى الصداقة بينى
وبينه . . والواقع أن الفتى كان يختلف عن مظهره كل
الاختلاف . . فقد كان رقيقاً شاعرى النفس ، حلو الحديث ،
وإن كان أكثر مايعيبه هو فرط حيائه وتهيبه من الناس وقلة
درايته بالحياة .. فقد كانت حياته لاتكاد تتعدى تلك الصفحات
من مئات الكتب التى يغرق فيها رأسه .

وبدأ أصدقائى الخبثاء يتخذون من الفتى ملهاة لهم ،
ومسلاة يتندرون به فيما بينهم . . وانتهى بهم الأمر أن
يدبروا مؤامراتهم الماجنة . . والتى لم أعلم بحقيقتها إلا فيما
بعد . . وإلا لوضعت حداً لمزحتهم الشائكة وخاصة مع مثل
هذا الفتى الحى . . والذى ما أظنه قد جلس فى حياته إلى
امرأة قط . . أراد الأشقياء أن يعبثوا بالفتى فاتفقوا مع

فتاة من صديقاتهم أن تكتب له خطاب غرام تصف فيه مبلغ إعجابها به ولهفتها عليه . . وتقول « إن حبها قد بدأ مذ رأته جالساً فى صمته ووجدته بعيداً عن الناس ولهوهم ، ومجونهم . . وأنها لم تتمالك نفسها من الإعجاب بسيماء النبل البادية عليه » ! ثم ينتهى الخطاب بتحديد لقاء فى الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة فى ملتقى العشاق بإحدى الضواحى النائية.. ثم تضيف إلى ذلك ملحوظة جاء فيها : « يمكنك معرفتى بعينى السوداوين الحزينتين وبمعطفى الأحمر ووردة بيضاء سأمسك بها فى يدى » .

ويستطيع المرء أن يدرك وقع مثل هذا الخطاب فى نفس الفتى الذى يذوب خجلا وحياء . . والذى ما خطر له أن فتاة يمكن أن تعشقه ، بل الذى لا يذكر أن فتاة نظرت إليه نظرتين متتاليتين .

ويمسك الفتى بالخطاب ويخلع منظاره ليمسحه جيداً . . ثم يأخذ فى تلاوته مثنى وثلاث ورباع ، والأشقياء على مقربة منه يسترقون النظر إليه ويضعون أكفهم على أفواههم خشية أن تفلت منها الضحكات التى تعتمل فى صدورهم ! ! ثم يطبق الفتى الخطاب فى رفق وعناية ويضعه فى جيبه ثم يروح فى شبه ذهول . . ولا شك أن الفتى قد قضى يومه قلقاً حائراً

فقد لقيته وفى عينيه نظرات غريبة ثم انتحى ناحية بعيدة، ودفع إلىّ بالخطاب ووجهه يصطبغ بلون الأرجوان .. وطلب منى قراءته ثم راح يرمقنى فى صمت فلما انتهيت من قراءته سألنى فى صوت خجول :

– يخيل إلىّ أنى أعرفها .. وأحس بلهفة إلى الذهاب للقائها .. ولكنى لا أجد فى نفسى الجرأة الكافية .

فقلت:

– الأمر لا يحتاج إلى جرأة أو شجاعة .. فكل ما بنفسك من حياء سيذوب بمجرد لقائك إياها .

ولم أكن أعلم وقتئذ أن فى الأمر مزحة مدبرة .. وإلا لأجبته بغير ذلك .. ولأطلعته على الحقيقة حتى لا أتركه ألعوبة بين أيدى هؤلاء الماجنين العابثين . ولكننى كنت أظن مثله أن الأمر لا يعدو الحقيقة فقد كان الخطاب مكتوبا بأسلوب متزن معقول لا يكاد يميز المرء فيه هزلا أو مزاحاً حتى جاء يوم الجمعة . فعلمت من أحد الأشقياء الذين دبروا المؤامرة أن الخطاب أكذوبة أريد بها السخرية من الفتى وإخراجه من صمته ووقاره !!

وشعرت بالأسى يتملكنى فأسرعت إلى داره لأنبئه بحقيقة الأمر . ولكن ما أن وقع بصرى عليه حتى وجدته قد تأنق وتزين والعطر يفوح منه ورأيت وردة حمراء تتربع

على صدره . . ولمست الأمل يترقرق فى وجهه . . كل ذلك جعلنى أجزع من ذكر الحقيقة التى ستهدم تلك القصور الشامخة التى شادها الفتى فى رأسه فألقيت إليه ببضع كلمات تافهة وغادرته بعد أن وعدته بالعودة إليه بعد أن ينتهى من موعده .

وعدت إليه فى العاشرة . . فقد أحسست أن من واجبى أن أرفه عنه وأن أزيل ما علق بنفسه من آثار خيبة الأمل . . فقد تخيلته يحملق بمنظاره ومنقاره فى كل امرأة تمر به دون أن تعيره إحداهن أدنى التفاتة . . ولم يعد الفتى إلى داره حتى الحادية عشرة ، عندما رأيته قد أقبل حزيناً ملتاعاً وقد بدا عليه الإعياء . . فألقى بنفسه على مقعد وقال كمن يحدث نفسه :

– إنها لم تأت بعد .

– ربما قد عاقها مرض . . أو حدث لها طارىء منعها من الحضور .

ولم أدر أى شيطان دفعنى إلى أن أجيبه هذه الإجابة التى أعادت الأمل إلى نفسه . . وجعلته يتعلق مرة أخرى بخيوط الوهم . . فقد أجاب :

– نعم . . لابد أن يكون هناك ما منعها . . ولا بد

أنها ستكتب إلىّ مرة أخرى لتشرح ما حدث . . كم أخشى أن يكون قد مسها مكروه أو أصابها سوء .

فلا شك أنها كانت تنوى الحضور وإلا لما كتبت تقول ذلك .

وفى الواقع . . كان يجب علىّ أن أفضى إليه بالحقيقة كلها فى ذلك الوقت ، ولكنى لم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لذلك ، ولم أرد أن أحمل الفتى خيبة فوق خيبة . . وفضلت أن أترك للظروف تدبير أمره وللزمن أن يبرئه مما به ، وينسيه ذلك الخطاب وصاحبته .

ولشد ما أخطأت فى ظنى . . فلم تزد الأيام الفتى إلا استعارا . . لقد استمر يذهب كل مساء فى الموعد المضروب إلى مكان اللقاء فلا يعود إلا فى منتصف الليل ! !

وكان علىّ أن أفعل شيئاً وقد أوشك الفتى على الجنون ، ورأيت من العبث أن أخبره أن المسألة كلها هزل فى هزل ، فقد كان من العسير على المرء أن ينتزع الفتاة الوهمية من رأس الفتى وأن يقنعه أنها كائن لا وجود له إلا فى مخيلته وفى سطور الخطاب الذى خدع به . . وعلى ذلك فلم يكن أمامى إلا حل واحد ، وهو أن أوجد له الفتاة فعلا . . وأن أحوّلها من الوهم لتكون حقيقة ثابتة . . فأجعلها تلقاه

حتى يهدأ باله وتطمئن نفسه .. ثم تحاول هى بعد ذلك التخلص منه بحكمة ومهارة . . وكان خير من أستعين به فى هذه المشكلة صديق اشتهر بوسامته وكثرة صديقاته ، ولا تكاد تخلو مائدته من عشرات الفاتنات الساحرات بين الكئوس والضحكات .. فذهبت إليه وقصصت عليه القصة ، وسألته لو أمكن أن يتفق مع إحدى صاحباته على أن تلق الفتى مرة أو أو مرتين فتتلطف معه بعض الشيء ثم تفهمه أنها لن تستطيع لقاءه بعد ذلك لأنها سترحل بعيداً لعذر تنتحله . . وأخبرته أن من الخير ألا تكون الفتاة مفرطة فى الحسن حتى يسهل على الفتى أن ينساها بعد ذلك .

وفى اليوم التالى أخبرنى صاحبى أنه استطاع أن يقنع إحداهن بلقاء الفتى وهى — وإن كانت بارعة الحسن — إلا أنها أيضاً خبيرة بالنفوس داهية ماكرة ، تستطيع أن تعيد الفتى إلى نفسه من اللقاء الأول وتجعله يندم على لقائها وعلى التفكير فيها .

* * *

وكنت جالساً مع الفتى عندما جاء الخطاب الثانى . . وأبصرت به يفضه بيد ترتجف ويبدأ قراءته وقد تصاعد

الدم إلى وجهه . . ثم رأيته يمد يده إلىّ بالخطاب ويقول فى صوت هامس :

ــ ألم أخبرك أنها لابد أن تكون مريضة ؟!

وأمسكت بالخطاب ، ولم يكن بى من حاجة إلى قراءته فقد كنت أعلم ما به .

ولكنى تظاهرت بالقراءة . . لقد كان بالخطاب اعتذار بالمرض وموعد للقاء فى نفس المكان وفى نفس الساعة . . وذهب الفتى للموعد وانتظرت أن يؤوب سريعاً ، ولكن غيبته طالت حتى خشيت أن يكون قد مسه سوء أو يكون قد ألقى بنفسه فى النهر ومات منتحراً . . ولقيته فى اليوم التالى فأقبل علىّ باسماً متهللا . . وبدأ يحدثنى عن لقاء الأمس فوصف لى كيف أقبلت عليه الفتاة بقامتها الفارعة ومعطفها الأحمر ووردتها البيضاء . . تماماً كما حدثته فى خطابها لا تكاد تختلف فى شىء سوى أن عينيها السوداوين لم تكونا حزينتين بل كانتا تبرقان بالمرح وتشعان بالسرور .

ــ إنها نشوة أثارتها فى نفسى . . ماظننت قبل أن أراها أن من الممكن لإنسان على هذه الأرض الشقية أن يسعد مثلما سعدت . . لقد أقبلت علىّ هاشة باشة كأن بيننا قديم صحبة . . والواقع أنى أحسست أن روحينا قد التقيتا قبل

الأمس مئات المرات !! وأمسكت بيدها وانتحينا ناحية هادئة على الشاطىء وطلبت منى الفتاة أن أحدثها عن نفسى ، فرأيت لسانى ينطلق فى الحديث ويروى لها كل ماوعته الذاكرة من الشعر والقصص فأطربها الحديث ، ورحنا نحن الاثنين فى نشوة . . أنا أحدثها بلسانى وهى تجيب بعينيها .

وصمت الفتى برهة ثم عاود الحديث :

— سنلتق اليوم مرة أخرى . . وقد تركت لى عنوانها حتى أستطيع الاتصال بها إذا ألمّ بها سوء .

ويستطيع المرء أن يتصوّر مدى ما أصابنى من الدهشة والذهول عند ما سمعت حديث الفتى . . وشعرت أن المشكلة تزداد تعقداً وأن الفتاة الحمقاء قد ذهبت لتزيد الفتى لهيباً بدلا من أن تطفىء لهيبه !!

ترى كيف تستطيع أن تخلص نفسها منه بعد ذلك ؟ . . وذهبت إلى صاحب الفتاة وأنا حانق ثائر . . فلقينى بابتسامة ساخرة وقال :

— أهذا هو صاحبك الذى تخشى عليه ؟ ! كان خيراً لك أن تخشى منه لا عليه . . إياك أن تعود لاقتراض صاحباتى لأصدقائك فإنهم محتالون لا يردون القرض .

وتملكتنى الدهشة عندما سمعت منه أن الفتاة التى ذهبت

لتمثل دورها القصير لم تجد الفتى قبيحاً كما تخيلته بل وجدته رقيقاً مهذباً ، واستطاع أن يأسرها بسحر حديثه وعذب صوته . . حتى لقد أقسمت أنها تستطيع أن تستمع إليه طول العمر دون أن يدركها ملل أو سأم .

ومرت الأيام فإذا بالمزحة قد انقلبت فصارت غراماً فياضاً وهوى جارفاً ، وكاد الأمر ينتهي بها فتصبح زواجاً سعيداً لولا أن حدث ما لم أكن أتوقع حدوثه قط .

فى ذات يوم جلس الفتى يتحدث مع أحد الأصدقاء الذين دبروا المزحة فى أول الأمر . ولا أدرى أى شيطان دفع الخبيث إلى أن يفضى إلى الفتى بقصة الخطاب من أولها إلى آخرها . . وأصيب الفتى بصدمة أخرى عنيفة قاسية أفقدته رشده . . فقد رأى أنه لايعدو أن يكون فى كل هذه الأحلام العذبة ألعوبة وسخرية . . وسحق قلبه أن يكون كل ذلك الهوى الجارف من الفتاة محض تمثيل هازل ماجن .

ولقينى الفتى بوجه متجهم عابث ، وهيكل محطم مهدم ، واعترفت له بكل ماحدث . . ولكنى أخبرته أن شيئاً واحداً مما حدث لم يكن به أى هزل أو مجون ، وذلك هو حب الفتاة . وحاولت أن أفهمه حقيقة ماحدث ، ولكنه أشاح عنى بوجهه وانصرف كأنه شبح أو خيال ، وشعرت أن رأسى يكاد

أن ينفجر . . وخشيت على الفتى أن يودى به وهم كاذب . . ولم أجد خيراً من أن أسرع إلى الفتاة فأنبئها بما حدث حتى تسرع إليه فتقنعه بأن حبها له حقيقة لا خداع . . ولقيت الفتاة وهرعت وإياها إلى دار الفتى واقتحمنا حجرته لننقذه من شر أوهامه . . ولكننا وجدنا أننا قد تأخرنا قليلا . . فقد أنقذ الفتى نفسه بنفسه . . لقد انتحر المسكين ، وتركت الفتاة ترتمى باكية أمام الفتى المسجى على فراشه وغادرت الدار . . فقد أحسست أننى أوشك على الاختناق .

ياللسخرية ! ! هذا الفتى الذى كنت أعالجه بالوهم الكاذب قد مات بوهم كاذب .

ترى لو كان يعرف صاحب المزحة أن مزحته ستنتهى بمثل ما انتهت إليه . . أما كان يشفق على الفتى منها ويكفى الناس شر المزاح ؟ !



ليلة الثأر

المحراث يشق الأرض يقلب عاليها أسفلها وأسفلها عاليها ، وقد دفن حدّه اللامع فى باطنها . وتحركت البهيمتان يتبعهما جسد طويل متين البنيان ، وقد أمسك بيساره خشبة المحراث ، وبيمناه عصا طويلة يستحث بها البهيمتين كلما بدا منهما تكاسل أو تراخ .

كان ذلك فى إحدى القرى القريبة من القاهرة ، وكان الجو قد شمله ضباب ثقيل لم تستطع شمس الصباح بأشعتها الواهنة الرقيقة أن تبدده أو تنفذ خلاله ، فبدت ذراتها البيضاء معلقة فى الجو ساكنة راكدة لا يكاد المرء يتثاءب ويتنفس حتى يتصاعد من فمه دخان كثيف . . وظهرت قطرات الندى تلمع على أوراق البرسيم الداكنة الخضرة . . وتوقفت إحدى البهيمتين ترعى بقايا خضرة الأرض . . فتصاعد من ورائها صوت ينهرها : « حا » ، وكان الصوت صوتاً نسائيا على ما فيه من غلظ وخشونة فقد كان السائر وراء المحراث امرأة . . أجل . . كان الجسد الطويل الفارع ، المتين البنيان ، هو جسد (أم بهانة) .

وقد أخذت تحرث الجزء الباقى من أرضها الذى لم يتم زرعه بعد .. لم تكن المرأة لتفترق عن الرجل فى شىء . .

وأعنى بالرجل . . الرجل الشديد المراس ، القوى الشكيمة . . المهاب الجانب . . الموفور الكرامة . . وكانت تقوم على زرع أفدنتها الخمسة بنفسها لا يعينها فى ذلك سوى ابنتها « بهانة » ، وعامل أو عاملان تستأجرهما فى وقت تغيير الزرع . . واستمرت المرأة فى تقليب الأرض جيئة وذهاباً بينما أخذ ذهنها يكد فى التدبير . . ماذا فعلت ؟ . وماذا ستفعل ؟ . هل تبيع فدان البرسيم — الفحل — ؟ أم تتمهل قليلا ؟ . . ثلاثة جنيهات للقيراط ليست بالسعر الذى تطمع فيه . . ولكنها تخشى إن استمرت فى الرفض أن تضيع الفرصة ويبور البرسيم . . ثم إن « السيد الساقط » خير من غيره . . فهو مضمون فى الدفع . . سريع فى حمل البرسيم لأنه متعهد الجيش ، وسيخلى لها الأرض فى يوم أو يومين . . فتستطيع أن تنتفع بزراعتها مرة أو مرتين خضروات . . ثم قفز ذهنها قفزة سريعة إلى محصول الذرة . . لقد كان الإنتاج وفيراً فى هذا العام . . وهى تأمل أن تسدد منه المال . . وتبتاع الكسوة وتوقف ذهنها عن التفكير فجأة ، وبدرت منها صيحة غاضبة محذّرة : « يا بهانة حوّلى المياه . . لقد كاد الحوض أن يغرق » وعلى مسافة قريبة بدت « بهانة » ، وقد انحنت تضرب الأرض بفأسها وتحوّل المياه عن حوض البرسيم القريب . . إلى حوض

آخر . . ثم انتصبت واقفة فبدا جسدها استواء وامتلاء . . وبرز صدرها بروزاً طبيعياً غير متكلف ولا مصطنع وسألتها أمها :

ــ هل أحضرت تقاوى اللفت لكى نبذره على الفحل ؟

ــ أجل . . لقد وضعتها بجوار الجميزة .

وتحوّل بصر المرأة إلى الجميزة القائمة على قارعة الطريق فرأت بجوارها رجلا يقتطع بفأسه من كوم السماد القائم أسفل الشجرة ، وعاد ذهن المرأة فى الشرود مرة أخرى . . وبدا على وجهها تجهم شديد . . لشد ما كان يسوءها من ابنتها هذا التهافت منها على « محمود بن الشيخ معاطى » . . ماذا حدا بالفتاة إلى أن تخص الفتى وحده دون سائر خلق الله بعطفها أو حبها . . هذا المخلوق الذى كانت تحس له المرأة حقداً وضغينة لم تستطع الأيام فى مرّها أن تمحوها أو تخفف من حدّتها . . لقد كانت ترى فيه ملامح أمه .. أمه الفاجرة العاهرة التى أفسدت عليها حياتها ، وسلبتها الراحة والنعيم . . وانطلق ذهنها يعدو فى ضروب الماضى البعيد . . المظلم الأرجاء . . الشبيه بذلك الضباب الذى يحيط بها .

وبدأت تستعرض صوره الباهتة ، فأبصرت بنفسها فى ربيع العمر ومستهل الحياة .. وأبصرت زوجها فى ريعان شبابه

ومن حولها الأرض الطيبة . . وقد أخرجت الزرع من باطنها أخضر تجرى فى عروقه ماء الحياة .

كانت تحس وقتذاك أن أفدنتهما الثلاثة ضيعة واسعة . . وأن بيتهما الطينى قصر شامخ . . وهل يمكن أن يحس صاحب الضيعة وصاحب القصر بسعادة أكثر من تلك السعادة التى تفيض بها نفسها ؟ وتذكرت كيف وضعت «بهانة» وكيف ألم بنفسها حزن . . خشية أن يحزن زوجها لأنها لم تنجب له ولداً . . ولكن زوجها لم يحزن ولم يكتئب . . على النقيض ، لقد كانت فرحته بالطفلة لا توصف . . وتذكرت بعد ذلك كيف بعثت الطفلة فى حياتها ضياء فوق ضياء . . ومنحتها هناء فوق هناء . . وكيف كان أبوها يتفاءل بها فلا يفتح عينيه فى الصباح إلا إذا أحضرتها له حتى تكون أول ما يفتح عليه بصره . . واستمرت قانعة بحياتها راضية مرضية حتى بدأت تبصر بأول سحب الشقاء تعكر صفو حياتها . . إنها تذكر أول يوم رأت فيه تلك السحب المعتمة حين أقبل عليها زوجها يقول لها فى غير اكتراث :

— هل سمعت مافعله ذلك الشيخ المخرّف ؟

— منْ ؟

— الشيخ معاطى ! !

ــ الشيخ معاطى رجل مخرّف ! . . حرام عليك . . إنه من أفاضل الناس .

ــ لقد كان من أفاضلهم حتى أمس .. أما اليوم فقد أضحى من مخابيلهم .

ــ ولِمَ ؟ ماذا حدث منه ؟

ــ لقد تزوّج .

وبهتت المرأة بعض الشىء . . ولكن ما تعرفه عن طيبة نفس الرجل وقوة إيمانه جعلها تدافع عنه لتلتمس له المعاذير فقالت :

ــ وما العيب فى أن يتزوج ؟ . . لقد مضى عامان على وفاة زوجته والرجل ما زال ــ رغم بلوغه الخمسين ــ فى عنفوانه وفى أوج صحته . . فلِمَ نحرم عليه ما أحله الله ؟

حتى مرّ بهما عام أو مايقرب العام . . فوضعت له ابنه « محمود » . . وكانت فرحة الرجل بالطفل شديدة ، وهو الذى عاش مع امرأته الأولى دهراً طويلا . . لم ينعم الله عليه بالبنين .

ــ هل تدرين مَنْ تزوج ؟

وهزت رأسها بالنفى قائلة :

ــ وأنَّى لى أن أعرف !

— تزوج سنية الغازية .

وبدرت منها صيحة دهشة لم تستطع كتمانها ووجدت نفسها تكرر — وهى مبهوتة — سنية الغازية !! قل شيئاً غير هذا !! إن الشيخ معاطى رجل عاقل .

وكان من العسير عليها أن تصدق أن الرجل الطيب الرزين الحكيم . . قد أقبل على مثل هذا العمل الجنونى حتى رأت — الغازية — بعينى رأسها تحتل دار الشيخ وتجلس معه موضع السيدة . . ترى ماذا أصاب الرجل حتى دفعه إلى التردى إلى تلك الهاوية ؟ . . أمثله يتزوج المرأة الملوثة العاهرة ؟ . . هذه المرأة التى ليس لها مورد للرزق إلا رنين « الصاجات » بين يديها . . وهز الردفين ، وعرض جسدها للبيع والإيجار ، ولم يحاول أن يستمع لنصح ناصح . . بل ركب رأسه واتبع هواه وأعرض عن الناس وأعرضوا عنه . . وانطوى مع امرأته فى عقر داره . . وبدأ الناس يصلون ما انقطع من الصلات بينهم وبينه ، بعد ما رأوا من امرأته ذلك الانطواء والإقلاع عن الفسق والفجور وكان أول من وصله . . هى وزوجها . . أجل . . لقد عادت الصلة بين الجارين إلى ما كانت عليه ، وحلت المودة محل القطيعة . . وبدأت هى تقبل على — الغازية — وتتخذ منها صديقة لها . . ومرّت الأيام فإذا بها تلحظ تغيراً

ملموساً فى سلوك زوجها ومعاملته لها ، فلم تجد منه ذلك الحنان والإقبال . . وساء خلقه . . ولاحت لها فى الجو بوادر عاصفة تكاد تودى بحياتها .

لم يكن من العسير عليها أن تدرك أن الحية قد بدأت تلعب بذيلها ، وتنصب الحبال حول زوجها . . فقد أخذت الألسن تتناقل الإشاعات بأن هناك صلة بين زوجها وبين الغازية . . وأنهما قد اتخذا من الجميزة محلا مختاراً لعلاقتهما الآثمة . . ولم تكتف الغازية بصيد واحد . . وبدأت تمد شباكها لتوقع ما تستطيع من الرجال . . فإذا بها تسمع عن علاقات أخرى بينها وبين « ابراهيم » شيخ الخفراء ، وبين « عبد الصبور » ابن العمدة . وكبتت المرأة أحزانها بين الضلوع وقالت لنفسها : نوبة طارئة من الهوى والطيش سرعان ماتزول وفترة جموح سرعان ما يعود بعدها إلى سابق هدوئه وسكينته ، وحاولت جهدها أن تخفى غيرتها وأن تعالجه باللين حتى يعود إلى حظيرتها . . وأخيراً عاد إلى حظيرتها ، ولكن عودته كانت بشكل لم يخطر لها قط على بال . . ذلك لقد كانت عودته فى حلكة الليل محمولا على الأعناق . . مضرجاً بدمائه لا نفس فيه ولا حراك .

تذكرت كيف دوّى فى سكون الليل صوت الرصاص . .

وهى جالسة تنتظر عودته كما تعوّدت دائماً أن تنتظره ، وقد وضعت ابنتها فى حجرها . . وكانت ترفع أكفها من آن لآخر إلى السماء تدعو الله أن ينقذه من تلك الحية الآثمة . . وقد عصفت بنفسها الغيرة والحزن وقد أفزعها دوى الرصاص . . ولكن فزعها لم يكن أكثر من فزع البهيمتين المستلقيتين أمامها عندما فتحتا عينيهما لحظة . . ثم عادتا إلى سباتهما . . كما عادت هى إلى الاستغراق فى التفكير حتى أحست بعد لحظات بوقع أقدام تقترب فى الخارج . . وأصوات مختلفة تتصايح وتتهامس . . ثم دفع الباب وأبصرت على ضوء الذبالة التى تتراقص جسد زوجها والدماء تقطر منه . . ودوّت منها صيحة ذعر وارتمت على الجسد مولولة نائحة .

وكان الرجل مازال فيه بقية رمق ففتح عينيه واستغفرها ثم أسلم الروح ، وأجرى التحقيق بعد ذلك . . فلم يكشف القاتل . . إذ لم يعرف سوى أن الرجل كان يجلس تحت الجميزة عندما أصابته الرصاصة ، وقيدت الجريمة ضد مجهول ، ومع ذلك فقد كانت هى تعرف القاتل . . وتعرف يقيناً أنه لم يكن سوى « ابراهيم » شيخ الخفراء . . وأحد المتنافسين على الغازية ، وأنه قد قتله عندما أبصره يجلس وإياها تحت

الجميزة . . فاختفى بين عيدان الذرة وأفرغ رصاصته في صدره فأرداه قتيلا . . ولكن أى فائدة من أن تدلهم على القاتل . . وهى لا تعرف فيما بينها وبين نفسها أن هناك قاتلا سوى المرأة الفاجرة ؟ . أى فائدة تعود عليها وهى لن تفعل أكثر من أن تضيف إلى ضحايا المرأة ضحية أخرى . . ثم تظل هى بعد ذلك بمنجاة عن العقاب ؟! لا . . لا . . إن « ابراهيم » شيخ الخفراء – رغم أنه قاتل – فإنه فى نظرها لا يعدو أن يكون ضحية بريئة . . أما القاتل الذى يجب أن تثأر لنفسها منه فهى المرأة ، ولكن الغازية لم تعطها فرصة الانتقام . . وقد فرّت من القرية تاركة زوجها محطماً مهدماً . . لا يعزيه فى الحياة سوى ابنه الطفل . . ومرّت السنوات بها بعد ذلك وجمرة الثأر تتأرجح فى نفسها . . وسوس الانتقام ينخر فى صدرها فيقض مضجعها . . ويثقل كاهلها ويقوض ظهرها . . وقاومت الزمن والأحداث . . فضاعفت فدادينها الثلاث . . وأطلق عليها أهل القرية اسم « المرأة الرجل » . . وكبرت ابنتها وأضحت فتاة مكتملة ناضجة . . ونما ابن الغازية وأضحى شاباً فارع الطول .

ودفع القدر كلا منهما فى طريق الآخر فإذا بكل منهما

يقع فى هوى صاحبه ، وكانت تحس للفتى الحقد الذى كانت تضمره لأمه . . وكانت رغبتها المكبوتة فى الانتقام من الأم تدفعها إلى أن تحوّل انتقامها إليه .. فكانت تحاول دائماً أن تبعد بينه وبين ابنتها . . وبدأت تقرّب إليها الفتى الوحيد الذى يستطيع أن يقف نداً له وينتزعها منه .. وهو « عليوة » ابن إبراهيم شيخ الخفراء . . لقد بدأت تضرب أحدهما بالآخر . . ابن القاتل فى عرف القانون . . وابن القاتلة فى عرفها . . فهذه خير وسيلة للثأر لزوجها .

وسطعت الشمس دافئة فبددت الضباب وبدت الخضرة ممتدة على مدى البصر . . وانتهت المرأة من حرث قطعة الأرض . . وانتهت الابنة من رى البرسيم «المسقاوى» بعدأن حذرتها أمها من أن تمتد المياه إلى البرسيم « الفحل » لأنها قد نوت بيعه .. ورفعت « بهانة » بصرها فوقع على « محمود » وقد وقف فى نهاية الطريق وأخذ يشير لها خفية فأحست بقلبها يهفو . . وودّت لو تطير إليه ولكنها كانت تعلم ما تضمره أمها نحوه . . وتعلم كيف حذرتها من لقائه أو الحديث معه . وتعلم أن عقاباً يمكن أن توقعه بها لو علمت بأنها تخالف أمرها . ولم تكن الفتاة تدرك بعد سر أمها للفتى ، ولا كانت تعلم شيئاً عن الماضى الدفين فى صدرها . . بل كل ما كانت تعلمه

هو أن أباها قد مات وهى طفلة لا تعى فى الحيـاة شيئاً . . وأن أمها هى كل ما لها فى هذه الدنيا . . وانصرف « محمود » دون أن تجسر الفتاة على الذهاب إليه . . ومرّت الساعات والأم وابنتها منهمكتان فى زراعة الأرض . . وقبيل العصر بدأت الأم تفك البهائم وأنبأت ابنتهـا أن تستعد للعودة إلى الدار . . ودهشت الفتاة فقد كان الوقت ما زال مبكراً . . واستفسرت أمها عن السبب فى هذه العودة المبـكرة فأنبأتها ببساطة أن « عليوة » وأباه سيحضران لقراءة الفاتحة ولإتمام الخطوبة . . وأحست الفتاة بغصة فى حلقها وبرغبة شديدة فى البكاء . . ولـكنها كتمت ما بها ، فقد كانت تعلم أنه لا فائدة من الاعتراض . . وتبعت أمها إلى الدار ، ولم تمض فترة قصيرة حتى حضر الشيخ « إبراهيم » وابنه وقرأت الفـاتحة وانتهى الأمر . . وخرج الفتى والفتاة يتنزهان على شاطىء الترعة . . وكانت الفتاة لا تكاد تتماسك . . إذ كانت تحس أنها لا تبصر ما أمامها وأنهـا على وشك الانهيار بين لحظة وأخرى . . ووصلت إلى الجميزة وهى مطأطئة الرأس واجمة حزينة . . ورنت ببصرها فإذا بها تبصر أمامها « محمود » . . وأحست بقلبها يكاد يقفز بين جوانحها . . وتمنت لو استطاعت أن ترتمى بين أحضانه . . ولـكنها لم تجسر . . ووقفت متسمرة فى

مكانها وكان محمود أول من تكلم فقد سألها فى دهشة واستياء :

ــ إلى أين ؟

وأجابه « عليوة » فى غضب مكتوم :

ــ ليس من شأنك تسأل !

وقال « محمود » فى سخرية واحتقار :

ــ خير لك أن تتركها وتعود من حيث أتيت .

ــ أنا أتركها ؟ ! أترك خطيبتى ؟ .

ــ خطيبتك ؟ ! !

ثم نظر إلى الفتاة يستوضحها جلية الأمر فأطرقت وقد سالت من عينيها دمعتان صامتتان ، وعلم محمود الحقيقة وأدرك أن أمها قد فعلتها . . وأن الفتاة قد أجبرت على ما حدث . . وانتابته ثورة غضب جامحة . . وأدرك أنه لن يستطيع الحياة بدون الفتاة ، وأن من العبث أن يحاول التفاهم مع أمها . . فهجم على عليوه . . واشتبك الإثنان . . ولم تمض لحظة حتى كان عليوه طريح الأرض والدماء تسيل من جرح فى جبهته وقد فقد وعيه . . ونهض محمود وهو يلهث وقال للفتاة :

ــ هيا . .

وسألته وأنفاسها تتلاحق من فرط الذعر :

ــ إلى أين ؟

— نهرب من القرية .

ونظرت إلى الفتى الراقد بلا حراك ثم قالت هامسة :

— عليوه . . أنتركه هكذا ؟ !

ولكنه لم يجبها بل جرّها من يدها وابتعد بها وسط الظلمة ولم تقاوم الفتاة فقد كانت تحس بالحنين إليه فأخذت تهرول بجواره وهى مشدوهة حيرى .

وسألته فى الطريق :

— ألا نذهب إلى بيتكم فقد يستطيع أبوك أن يدبر أمرنا؟

— أبى ! ! هذا العاجز المريض الواهن المشلول الذى لا يستطيع حتى أن يدبر أمر نفسه . . تنتظرين منه أن يدبر أمرنا ؟ !

إن بيتنا هو أول مكان سيخطر على بالهم أن يبحثوا عنا فيه . . خير لنا أن ننطلق إلى القاهرة فلن نعدم وسيلة للرزق والمدينة واسعة تستطيع ابتلاعنا فى جوفها فلا يعثر علينا أحد.

ومع ذلك فقد استوقفهما أول شرطى صادفهما فى نقطة المرور الكائنة عند مدخل المدينة . . فقد أبلغ المركز عنهما ، وأعيدا إلى القرية مرة أخرى وأودعا مركز الشرطة وهناك وجدت الفتاة أمها والشيخ ابراهيم . . فأحست بخيبة أليمة وحزن مرير . . وكانت الأم تشعر بنشوة ولذة الانتقام

لقد سقط ابن ابراهيم الشيخ صريعاً بين الحياة والموت .. وها هو ابن « الغازية » سيوضع فى السجن بتهمة الشروع فى قتل . وفى تلك اللحظة أقبل شيخ واهن العظم يجر ساقيه ويتوكأ على عصاه . . ووقف بين القوم يلهث وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه .. وتبين فيه القوم « الشيخ معاطى » فأخذوا المرأه وعجب ابنه كيف استطاع أبوه أن يصل إلى المخفر وهو الذى لا يكاد يغادر فراشه . . وتحدث الشيخ موجهاً القول إلى المرأة المنتصبة أمامه فى عناد وتحد والتى بدت فى عينيها ومضة الفوز :

ــ أنا أعرف ما برأسك . . أعرف مالا يعرفه أحد من هؤلاء كلهم .. أعرف طريقتك الصبورة فى الانتقام ، ولكنى أكره أن تحمل أبناؤنا أوزارنا . . إنى وحدى المسئول عن كل ما حدث . أنا الذى أدخلت « الجرثومة » الفاسدة فى معشرنا الطيب . . وأنا الذى كان يجب علىّ أن أتحمل وزر ما فعلت . . كان يجب أن أقتل أنا زوجك دفاعاً عن شرفى المهين بدلا من أن أترك الشيخ ابراهيم يقتله وأتركك تثأرين منه ومنها فى ولديهما . . كان يجب أن أقوم أنا بالثأر بدلا من أن أدع الغير يتحمل عنى وزره . . ومع ذلك فإنى لا أجد الوقت قد فات فأنا أشعر أنى قادر على أن أثأر لنفسى ولك . . وأن أحمل العبء عنكم جميعاً .

وانتفض الشيخ العاجز ، وفى لمح البرق ، وقبل أن يدرك

أحد من الجمع ما ينوى أن يفعل . . اختطف بندقية من يد أحد الخفراء ثم أفرغها فى صدر ابراهيم شيخ الخفراء . . وخر الرجل صريعاً ، وألقى الشيخ سلاحه وهو يقول :

ــ هكذا يجب أن يكون الثأر .

ثم حاول أن يتلمس عصاه ليتوكأ عليها . . ولكن قواه التى حشدها فى لحظة الثأر كانت قد خارت . . لقد استنفدت فعلته كل ما بقى من زيت فى سراج حياته . . فكانت ثورته أشبه بومضة برق خبت بعد اشتعال .

وهوى الشيخ فى مكانه وتكأكأ عليه الخفراء . . ولكنه كان قد أفلت من بين أيديهم . . لقد أطبقوا على جسده ، أما روحه فكانت قد صعدت هاربة .

وجر الحراس جسدى الشيخين إلى الخارج ، وأحست « أم بهانة » أن جذوة الثأر فى نفسها قد انطفأت . . وعجبت لنفسها كيف أمضت السنين الطوال تذكى لهيبها وتشعل أوارها . . وأحست أنه لم يعد هناك موجب للانتقام من « محمود » . . وغادرت المخفر مطأطئة الرأس منحنية الهامة .

ومدت « بهانة » يدها إلى « محمود » فضغطت عليها معزية وهمست قائلة :

ــ لقد ظننته عاجزاً . . ولكنه استطاع أن يدبر أمرنا قبل أن يرحل . . لن أتركك بعد هذا أبدا .



الرداء الأخير

لم يكن يخطر على باله قط أنه سيلتقى بها . . عند ما جلس والأستاذ على شاكر صاحب جريدة « المساء » فى تراس شبرد يرشف قدحاً من القهوة فإذا به يلمحها مقبلة تصعد درجات السلم فى خفة .

ولقد تملكه من رؤيتها شعور بالدهشة والإعجاب فقد كانت فى حقيقتها أكثر روعة مما تبدو على الشاشة أو على المسرح . . وشعر بالخجل والخشية من ذلك النقد الذى سلخها به منذ بضعة أيام . . وإن كان قد أحس ببعض الطمأنينة لأنه توقع أن تمر به مر الكرام . . فلا شك فى أنها لا تعرف عنه سوى اسمه .

وتشاغل بتصفح جريدة أمامه . . ولكنه لم يشعر إلا وصاحبه قد نهض محيياً مرحباً . . ورفع بصره فإذا بها تقف وقد علت وجهها ابتسامة ساحرة .

كانت المرة الأولى التى التقيا فيها وجهاً لوجه . . فما رآها من قبل إلا على الشاشة البيضاء أو على خشبة المسرح ومع ذلك كتب عنها كما كتب عن سواها الشىء الكثير . . وكال لها من لاذع النقد ومرير الكلام ماهوى بها إلى أسفل سافلين ، ولقد فاجأه اللقاء فما كان به شديد لهفة عليه . . فقد كان أكثر

مايخشاه هو لقاء أولئك الذين سلقهم بلسانه . . إذ كان إنسانا ذا شخصيتين . . فهو يبدو فى حياته رقيقاً هادئاً .. جم الحياء . أما على صفحات الصحف التى يكتب بها فصول نقده . . فهو هجاء نقاد ، سلط اللسان لايرق ولا يلين .

ولم تك قد مضت أيام على سر ذلك النقد اللاذع الذى كتبه عن مسرحية « الخطايا » التى كانت تقوم فيها صاحبتنا بدور البطولة . . فصب عليها جام سخطه ، أو كما قال كل من قرأ النقد (مرمط بها الأرض) .

ونهض بدوره ومدّ يده مصافحاً . . وقام الأستاذ شاكر بواجب التعريف :

— الأستاذ ابراهيم الكاتب العبقرى والناقد المعروف .. أمينة هانم فكرى الممثلة القديرة والنجمة اللامعة . هذا تعريف صورى لا محل له . . فلا أظن كلاكما إلا يعرف الآخر خير معرفة .

ورفعت أمينة حاجبيها فى شىء من الدهشة قائلة :

— الأستاذ ابراهيم . . تشرّفنا يا افندم .. طبعاً أعرفه .. ومن الذى لايعرفه ؟

وأحس ابراهيم ببعض الارتباك وتمتم قائلا :

— العفو يا افندم .

وصمتت برهة وهى تفحصه بعينيها ثم أردفت قائلة :

— من الذى لايعرفه؟ ومن الذى لم يسلم من لسانه ؟ وهو أشبه بالفتوات داير يبطّح فى خلق الله .

وضحك ابراهيم وقال وهو يحنى رأسه فى رقة وأدب :

— العفو ياافندم .

وتدخل شاكر قائلا :

— تفضلى ياأمينة هانم .

ومد يده فجر كرسياً . وجلس الثلاثة حول المائدة .. وصفق شاكر بيديه ينادى الساقى . وقالت أمينة موجهة القول إلى ابراهيم :

— أريد أن أعرف ياأستاذ .. هل بيننا ثأر قديم وعداوة مبيتة ؟

ونظر إليها إبراهيم فاحصاً . فوجد بها نضارة عجيبة .. يندر أن توجد فى الممثلات ، وصمت برهة وأجابها ضاحكا :

— أتقصدين مثلا أن أبى قد قتل أباك ؟

— سل نفسك . ماسر تلك الحملات الشعواء التى تشنها علىّ ؟

— إن واجبى النقد . وأنا أحاول أن أقول الحق قدر ما أستطيع .

— لا .. لا يا أستاذ .. أنت هدّام .. هذا ليس نقداً .. هذا ضرب بالسياط . . هل تدرى . . أننى فكرت فى أن أزورك لأطلب منك الرفق والرحمة ؟

— ياافندم العفو .. هذا كثير . . هذا تقدير لاأستحقه . فلا أظن تلك الكلمات التى أكتبها لها تلك القيمة .

— أشد ما يؤسف له أنها كذلك .. هل تدرى أية خسارة سببتها لى حملاتك تلك ؟ أربعة عقود مع أربع شركات سينمائية مختلفة قد أضعتها من يدى . . ألم تقل عنى فى نقدك لفيلم « الهاربة » أنى أتلفت الفيلم ؟ . . إن أسوأ ما فى الأمر أن لكتاباتك قيمة .

— هذا شىء لو كان قد حدث حقاً فإنى عليه جد آسف . أنا لم أقصد قط أن أسىء إليك . . ولكنى قصدت بنقدى إصلاحك .. فإنى أرى فيك معدناً طيباً .. لديك مايجعل منك ممثلة عالمية . . لديك مواهب كامنة لم تستغل قط . . إن عيبك — كما قلت من قبل — هو أنك لاتحيين فى دورك . إنك تؤدينه بطريقة سطحية ، لاحرارة فيها ولا عمق ولا إيمان . . يجب أن تكونى أنت نفسك تلك المخلوقة التى تقومين بدورك .

— إنى أحاول ذلك فعلا .

— المحاولة شىء والنجاح شىء آخر ، فالنجاح فى التمثيل

ليس مجرد النية والمحاولة ، ولكنه موهبة وجهد . . إن لديك الموهبة ولكنك لاتبذلين الجهد . فالجهدهو كما قلت لك أن تحيي فى دورك ، فلا يبدو قط أنك تبذلين جهداً . . إن أقصى الجهد هو الذى لايبدو جهداً .

– وماذا يمكننى أن أفعل أكثر من ذلك ؟

– عيشى فى الدور الذى تؤدينه . . إنسى نفسك . . إن لدىّ فكرة لا أشك ، لو حاولت تنفيذها ، فى أنها سترفعك إلى القمة ، وتجعل منك شيئاً آخر .

– تنوى بيعها لى ؟

– لا . . بل سأهبها لك مجاناً . . لقد قلت لك إنه يجب أن تتلاشى شخصيتك فى دورك . . ويبدو لى أنك لا تستطيعين أن تفعلى ذلك بمجرد محاولتك أن تحيي فى دورك فى فترات التمثيل على خشبة المسرح . . أو أمام الكاميرا . . فلمَ لاتجربى أن تحيي دورك فى حياتك كلها . . سواء على المسرح أم فى الحقيقة ؟ . . إلبسى دورك فلا تخلعيه بمجرد مغادرتك المسرح . . بل ابقِ كما أنت . . وأحيي دورك فى الطريق . . وفى الدار . . وفى كل مكان . . ولا تخلعيه حتى تنتهى منه تماماً .

– ولكن هذا كلام خيالى يسهل قوله ويستحيل تنفيذه .

هناك أدوار لا أستطيع أن أتقمصها خارج المسرح . أدوار أكرهها لأنها قد لا تلائم طبيعتى .

ــ لا تقبلى قط أدواراً لاتحبينها ،أو لا تلائم طبيعتك .. لا تقبلى سوى الأدوار التى تتوقين إلى الحياة فيها ، وتحسين بمتعة خلال القيام بها .

ــ لا تدعنا نحلق فى سماء الأوهام فلو فعلت ما تشير به ولم أقبل إلا الأدوار التى أرغب فيها ما استطعت أن أكون ما أنا عليه .

ــ بل لأضحيت خيراً مائة مرة مما أنت عليه .. لِمَ لا تجربى ؟

وضحكت أمينة ، وتدخل شاكر بعد طول إنصات ، وقال لها ضاحكا :

ــ لا تصغى إليه ، فلن تأخذى منه غير هذه الأوهام .. هو لايحسن سوى الكتابة .. المهم هو أن تعطيه الآن إنذاراً نهائياً لكى لا يعاود الحملة عليك . ما رأيك ؟

وهز إبراهيم رأسه وهو ينظر إليها نظرات عميقة وقال :

ــ لو لقيتها قبل الآن لما استطعت أن أحمل عليها قط .

* * *

مضى على اللقاء عامان . ونحن الآن فى حديقة إحدى

الفيلات بمصر الجديدة وقد اضطجع إبراهيم على أحد المقاعد الطويلة ، وبدا شارد الفكر مغمض العينين . وقد أخذ يستعرض فى ذهنه ذلك اللقاء ، وأخذ يذكر كل ماجرى بينها وبينه . . من كان يظن هذا ؟ من كان يظن أنه أول من سيكتوى بنيران تلك الفكرة العربيدة التى أوحى بها إليها وقتذاك ؟ تحيا فى دورها ؟ لا فى المسرح فقط بل فى الطريق وفى الدار وفى كل مكان ؟ وتتقمص الشخصية التى تقوم بتمثيلها . . فلا تخلعها حتى تنتهى تماماً من أداء الدور وتنفض يدها منه .

أى جنون هذا الذى دفعه إلى أن يفضى إليها بذلك القول ؟ فض فوه قبل أن ينطق بتلك السخافة التى تثقل اليوم كاهله وتذيقه الأمرين . . ولكنه معذور ، فما كان يتخيل وقتذاك أن النصيحة ستنقلب بمثل هذه الطريقة ، وما كان يخطر له على بال قط . . أن ما حدث بينهما شىء يمكن حدوثه .

لقد التقى بها بعد اللقاء الأول مرة ثانية وثالثة ورابعة . . وفى كل مرة يلقاها يرى فيها شيئاً جديداً . أجل لقد تكشفت له عن مخلوقة عجيبة . . ليس بها من ذلك النوع الذى كان يظنه منها أى شبه أو صلة . . مخلوقة مرهفة الحس ، طيبة

القلب ، نقية السريرة ، شديدة الذكاء ، حلوة المعشر ، يطغى جمال باطنها على جمال ظاهرها .

ومرت به الأيام وهو يحس أن قيداً يشد وثاقه إليها وأنها قد باتت ضرورة من ضرورات حياته ، لا يستطيع عنها حولا .. وأخذت هى الأخرى تنساب فى تيار الهوى .. وبدأت تجد فيه نوعاً من الآلهة ، وتجد فى أحاديثه ونصائحه حكما سماوية يجب أن ترضخ لها ، وودت لو استطاعت أن تنفذ نصيحته الذهبية التى كان لا يفتأ يكررها لها . . « احيي فى دورك . . على المسرح وفى خارج المسرح . . لا تخلعيه حتى تنتهى منه .. إنسى نفسك وكونى دائماً المخلوقة التى يود المؤلف إبرازها » .

وزادت رابطة الحب بينهما توثقاً على مر الأيام ، ولم يكن يخطر بباله فى يوم من الأيام قبل أن يلقاها أنه يمكن أن يتزوج ممثلة . . فقد كان يعتقد أن الممثلة لا يمكن أن تصلح زوجة وربة دار .

ولكنها بددت من رأسه تلك الأفكار . . فقد وجد فيها خير من تصلح لأن تكون زوجته وأم بنيه . . وجد فيها نفساً قوية أبية حنونة ، وجد فيها بعداً عن التفاهة . . وجد فيها عمقاً وحساسية .. فأقدم على الزواج منها .. وهكذا

أضحى الناقد زوجاً . . وأحست هى أن الله وهبها من نعمائه ما أعجزها عن الشكر .

وبدأ فى ذلك الوقت عرض المسرحية الكبرى « الظلال المدلهمة » التى تقوم هى فيها بدور البطولة ، وسبق العرض بروفات عديدة ، بذلت فيها جهداً جباراً فقد كانت ترجو أن تبلغ الكمال ، حتى إذا ما ترفق بها فى نقده ، ترفق بها غير مرغم ، كانت تريد الإجادة ، حتى إذا امتدحها كان أميناً فى نقده . كانت تريد أن تثبت له أنها تحيا فى دورها حقاً وأن نفسها تلاشت فى الشخصية الجديدة التى تقمصتها . . وبدأ هو يحس مبلغ ما فى نصيحته من السخف والجنون عند ما وجد أن المخلوقة التى تدله فى حبها قد أخذت تتسرب من يده ، المخلوقة العميقة الذكية الهادئة المتزنة الرقيقة الحس . . وأنه قد استبدل بها مخلوقة أخرى تافهة رعناء ثرثارة مخبولة تكره الدار وتبغض الأطفال .

وأسقط فى يده ولم يدر كيف يقنعها أن تنسى نصيحته ، وأن من الجنون أن تستمر مرتدية تلك الشخصية التى تقوم بدورها على المسرح فى حياتها الخاصة ، وأنه يجب أن تنسى كل شىء عن دورها بمجرد أن تترك المسرح ، وإلا أضحت الحيـــاة بجوارها جحيماً لا يطاق . وبدأ يذوق الأمرين

فى الاعتذار عن هفواتها وسخافاتها وحماقاتها مع المعارف والأصدقاء ، ولم يكن يعزيه شيء إلا أن المسألة ليست إلا مسألة طارئة وأن دوامها لن يزيد على فترة عرض الرواية ، وحمد الله على أن دورها على ما سببه له من متاعب خير بكثير مما كان يمكن أن يكون .

ونجحت هى فى دورها الجديد أيما نجاح وبلغت فى تمثيلها الذروة ، وقال عنها النقاد إنها امرأة عبقرية ، وأن المسرح لم ير مثلها منذ عدة أجيال ، وانتهى أخيراً عرض الرواية ، وأحس هو بعبء ينزاح عن كاهله ، وتنفس الصعداء عندما شعر أخيراً أن المخلوقة المثالية التى أحبها قد عادت إليه وأنها قد خلعت ثوب التفاهة الذى ترتديه .

ومرت عدة أسابيع وهو ينعم بحياة هادئة . . حتى كان ذات يوم وقد عاد إلى داره ، فسمع صراخاً شديداً ، وأسرع إلى مصدر الصراخ فوجدها تقف أمام المرآة وقد تمزق ثوبها من فوق كتفيها وتهدل شعرها على وجهها وبدت فى عينيها نظرات فزع مجنونة ، ووقف أمام الباب يلهث ويسألها عما بها ، وفجأة انطلقت منها ضحكة عالية وقالت له :

— ما رأيك ؟

— فيم ؟

– فى هذا الدور الجديد .

ثم مدت يدها إليه بمجموعة أوراق مخطوطة . . وأمسك هو بالرواية وأحس أن رأسه يدور به ، واتخذ مجلسه فوق أحد المقاعد ، ووقفت هى وراءه وقد أحاطته بذراعيها ، ومن الصفحة الأولى أدرك نوع الرداء الذى تنوى زوجته ارتداءه ، أو على الأصح تبين أى زوجة جديدة يوشك أن يعيش معها . . لقد كان دور البطلة فى الرواية الجديدة « عاهرة مجنونة » ياساتر يارب . . عاهرة ومجنونة ؟

– لا . . لا . . إلا هذا .

ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، ونظرت إليه بعد أن أطبق الرواية وقالت له :

– طبعاً . . ستقول كعادتك دائماً ، إنها بايخة .

– لا . . لا . . إن عندى فكرة جديدة أود أن أعرضها عليك .

– أريد أولا أن أعرف رأيك فى الرواية ؟

– لا أستطيع أن أبدى رأيى فيها قبل أن أتم قراءتها ، ولكنى سأعرض عليك فكرة هائلة .

وسادت فترة صمت طويلة بدا خلالها كأنه قد استغرق فى تفكير عميق ثم قال لها :

ــ ما رأيك فى أن أكتب مسرحية خصصتها لك ؟

ــ أنت ؟ . ولكنك لم تكتب مسرحيات من قبل .

ــ وهل هذا معناه أنى لا أعرف الكتابة؟ سأكتب لك الدور الذى خلق من أجلك ، وخلقت من أجله .

ومرت الأيام بعد ذلك ، وهو لا يفعل شيئاً سوى كتابة المسرحية الجديدة وقد سجن نفسه فى حجرته لا يزور أحداً ولا يكلم أحداً . . وانتهى أخيراً من كتابة المسرحية ورسم بطلتها كما يشتهى . . زهرة ناضرة . . يفوح منها الشذى ، ويتضوع منها العبير ، امرأة مثالية .. سديدة الرأى ، صافية الذهن ، عاقلة مدبرة ، وفية مخلصة . . ربة دار وأم أطفال ، تعين زوجها على الحياة ولا تعينها عليه .. هادئة طيبة ، حمالة للأسى ، صبورة على المكاره .. لقد رسم بها ذلك الشىء الذى عشقه فى صاحبته وسلط عليها من أضواء قلبه وأوهام ذهنه ماوضعها فى مصاف الملائكة .

وأعطاها الرواية لكى تقرأها وتبدى له رأيها فيها ، وجلس فى الحديقة ينتظر فى قلق وخشية ، كيف ستقع الرواية من نفسها .

ومر الوقت بطيئاً مملا حتى أحس بوقع أقدامها على رمال الحديقة ، ثم أحس بيديها تحيطانه من عنقه وسألها هامساً :

ـ كيف وجدتينها ؟

فأجابت :

ـ مدهشة .

ثم أدارت وجهها فأبصر فى عينيها دمعة تترقرق وسألها فى دهشة :

ـ ما بالك ؟

فقالت :

ـ لقد رسمتنى كما تريد . . وسأكون كما رسمتنى .

ثم مدت يديها إليه بالرواية وقالت :

ـ خذها لا حاجة بى إليها . . إنى أستطيع أن أحيا فى دورى الذى رسمته بدون حاجة إليها .. إنى سأحيا فى دورى هنا فى الدار فقط . . سأنجب أطفالا فى الحقيقة لا على المسرح . . هذا هو دورى الأخير .



دموع الشاعرة

موجة

الحب قد غمرت الشاعرة .. وتيار الهوى قد جرفها فيما جرف ، وهى التى كانت تجلس على الشاطىء مطمئنة آمنة .. تدفع بالناس إلى خضمه الصاخب وتنأى بنفسها عنه .

كانت الشاعرة لاتباشر الحب إلا بالألفاظ والقوافى .. وكانت تلهب نفوس العشاق بأشعارها الحالمة ، ولا تتأثر هى إلا بقدر مايتأثر « حانوتى » فى مأتم .

لم تدر من علَّمها نظم القصيد .. فقد كانت شاعرة بالفطرة .. وكانت تقوله لأنها لايمكن أن تقول سواه .. ولم تكن هى نفسها لتشعر بسحره وقوته .. إلا من انعكاسه على نفوس الناس .. ومن تأثيره فى مشاعرهم .. كانت تعلّم الناس الهوى .. وهى أجهلهم به .. وكان شِعرها يفيض بالحب .. وهى أشد الناس خلواً منه .. كانت كساقى الخمر يثمل الناس ولا يثمل .. ويملأ بالنشوة رؤوسهم وهو أبعد ما يكون عن النشوة .. كانت ساقية الهوى فى كؤوس الشعر .

وفى ذات مرة ذاقت الشاعرة طعم الهوى .. وذاقته من يد ساحر لم تقو على مقاومة سحره لحظة واحدة ..

واستسلمت فى لين ورفق . . ووضعت شفتيهـــا على حافة الكأس وأقسمت ألا تكف عن الارتشاف . . لقد أحبت الشاعرة ! !

فى ليلة عجيبة . . اقتطعها الله من ليالى الجنة . . وأسقطها لأهل الأرض فاندست فى لياليهم ! ! ليلة ظلمها من سماها ليلة . . فهى ليست من الليل فى شىء . . فى سحرها نور أبهر البصر من نور النهار . . ليلة . . لا ينام فيها إلا الحمق والمجانين .

فى هذه الليلة جلست الشاعرة وحولها جمع من الخلان ، أسكرهم سحر الليل والخمر والهوى . . فانطلقوا فى الرقص والضحك . . ولم يكن بينهم إنسان إلا غمره النعيم ، وملأته النشوة . . وبدأ الغناء فصمت القوم وأنصتوا . . وراحوا من الطرب فى شبه غيبوبة . . وانتهى الغنـــاء فضج القوم بالتصفيق والهتاف .

ووقف بين القوم فجأة فتى أسمر الوجه ، دقيق التقاطيع ، حلو الملامح . . وقد أمسك بقيثاره فى يده . . وأشار باليد الأخرى للقوم أن ينصتوا . . وأنكر القوم الفتى .. فقد كان غريباً مغموراً . . لم يسمع به من قبل فى عالم الغناء . . ولكن الفتى لم يأبه ، وأصرّ على أن يغنى . . وبدأ غناءه بالفعل . .

فإذا بالقوم تتملكهم هزّة ، وينتفضون ، كما انتفض العصفور بلله القطر .

هذا الفتى لا يمكن أن يكون آدميا . . إذ ليس بإنسان قط من كان مثله . . وإن كان إنساناً . . فلا شك أنه ساحر من السحرة . . وإلا لما ترك القوم هكذا جاحظى الأعين فاغرى الأفواه ، لا حراك بهم ، كأنهم أجساد بلا أرواح أو كأنهم أهل الكهف !

وانتهى من الغناء ، فردّت الروح إلى القوم ، وجاشت فيهم الحياة . . فانطلقت حناجرهم بصيحات الإعجاب ، وتكأكأوا على الفتى يوسعونه تقديراً وإعجاباً .

وهدأ القوم وسكنت ثائرتهم ، فصاح أحدهم يطالب الفتى أن يغنيهم بعضاً من شعر الشاعرة . . وظهرت الحيرة على الفتى . . وبدا عليه أنه لم يسمع لا عن الشاعرة ولا عن شعر الشاعرة .

وأصرّ القوم على طلبهم ، فلقّنوا الفتى من نظم الشاعرة أبياتاً تسيل رقة وعذوبة . . وسرعان ما ارتجل الفتى لها لحناً وبدأ فى غنائها .

وخيل إلى الشاعرة أنها لا تبصر من حولها . . وأحست لحن الفتى قد حملها بعيداً إلى عالم مليء بالفتنة والسحر . .

عالم لا يحوى من الكائنات سواهما . . وخيل إليها أنها تسمع همسات تقول :

« هنا لا تقع العين على غيرى ولا غيرك » .

أى عذوبة أضفاها اللحن على الشعر ؟ وأى جمال ، ورونق كساه إياه ؟ .. أهذا هو حقاً ما قالته هى ؟ لا تظن .. فو الله ما أصاب الشعر من نفسها عندما قالته مثقال ذرة مما أصابه عندما غناه الفتى . . لقد كانت كصانع التمثال . . وكان كنافخ الروح فيه .

وانتهى الفتى من الغناء . . وكم ودت لو لم يكن لغنائه من نهاية . . بل يستمر يغنى ويغنى فلا ينتهى إلا وقد انتهى العمر ونضب معين الحياة .

ومنذ تلك الليلة ، والشاعرة قد غمرتها نشوة لا تكاد تفيق منها . . لقد وقعت الشاعرة فيما أوقعت الناس فيه . . وذاقت الكأس التى كانت تكتفى بحملها إلى العشاق . . فأسكرتها خمرها .

وأحست الشاعرة لذة الهوى ، وأدركت أن ما نظمته فى الحب كان بالنسبة لحقيقته قشوراً زائفة ، واندفع الفتى الموسيق الناشىء فى حبها حباً جنونياً .

* * *

ورحل العاشقان إلى كوخ الفتى على شاطىء البحر .. ليمرحا فيه فترة من الوقت بعد أن اتفقا على الزواج .

ووقفت الشاعرة تطل من نافذة الكوخ وقد امتد البحر أمامها فى زرقة عجيبة ، وصافح نسيمه الرطب وجهها فأحست أن بالحياة حقائق قد تفوق فى متعتها أجمل الأحلام .. وعجبت لنفسها كيف استطاعت أن تحيا فيما مضى دون حب .. وكيف كانت تحتمل تلك الحياة الجوفاء الخالية !

وأحست الفتاة بوقع أقدام تدب خلفها متسللة .. وكانت أذناها لا تخطئان قط صوت أقدام الفتى .. ولكنها لم تتحرك كأنها ما شعرت بقدومه .. لقد كانت تعرف ماذا سيفعل ، وكانت تتمنى أن يفعله فى كل آونة .. كان كثيراً ما يتسلل إليها .. فلا تشعر إلا وشفتاه قد مستا عنقها فى لهفة وشغف فتسرى فى جسدها رعدة لذيذة ، وتتسلل الشفتان الملتهبتان من العنق إلى الذقن إلى الفم إلى العينين .. فلا تتركانها إلا ووجهها قد ألهبته القبل ، وكانت تحس به فى كل مرة عندما يتسلل خلفها ولكنها كانت دائماً تدعى أنها لا تشعر !

وكان كوخ الفتى ـ على صغره وبساطته ـ جميلا أنيقاً ..

وكان المكان خالياً إلا من بضعة أكواخ صغيرة متشابهة . . وكان الفتى يعيش مع أمه العجوز الطيبة التى رحبت بقدوم الفتاة الشاعرة أيما ترحيب . . فقد كانت الفتاة رقيقة لطيفة المعشر . . حلوة الحديث . . فسرعان ما جذبت إليها قلب العجوز .

وفى ذات يوم نزلت إلى حديقة الكوخ فإذا بفتاة شقراء قد جلست فى ركن الحديقة . . وعندما اقتربت منها الشاعرة وقفت الفتاة فى احترام شديد وقد بدا عليها الخجل ثم قالت بصوت خفيض :

ــ لقد كنت أنتظر خروجك فى لهفة . . ألست سيدتى الشاعرة ؟

وفوجئت الشاعرة وبدا عليها الارتباك فقد انغمرت فى حياة الهوى الجديدة ونسيت كل ماعداها .. حتى أنها شاعرة .. فقد خلا رأسها من كل شىء إلا الحب . . وصمتت لحظة ثم أجابت بهدوء :

ــ نعم . . إنى هى .

وملأ السرور نفس الفتاة الصغيرة الشقراء ، وافتر ثغرها عن ابتسامة ساحرة جذابة ، وقالت فى فرح شديد :

ـ لقد سمعت اسمك يتردد على فم الخادمة ، ولم يخطر لى على بال أنك الشاعرة التى أحفظ لها كل بيت قالته . . بل كل كلمة . . بل كل حرف ، ولم تكن لى أمنية إلا لقاءك . . أو حتى رؤيتك عن بعد . . فتخيلى ياسيدتى أننى أسمع أنك تقطنين بجوارنا . . أى صدفة عجيبة تلك التى ألقت بى إلى هذه الناحية ؟ ! إننا لم نقطن هنا إلا منذ يومين ، وكنت لا أرغب فى السكنى فى هذا المكان ، ولكننا لم نجد سواه . . فنزلنا فيه مكرهين . . فتصوّرى ياسيدتى أننى أسمع بعد ذلك أنك تنزلين بجوارنا . . أى فرصة سعيدة . . ؟

وكان الحديث يتدفق من فم الفتاة فلم يسع الشاعرة إلا أن تستمع . ولو قيل لها هذا الكلام فى غير ذلك الوقت لما أحست بأن هناك من يعدلها غبطة وسعادة . . إذ لم يكن يسرها شىء قدر أن تسمع ثناء المعجبين بشعرها . . ولكنها الآن . . لم تجد معنى لكلمات الفتاة فلم تسرّها . . ولم تحرك مشاعرها . . لقد كانت زاهدة فى كل شىء عدا الحب . . لم تكن ترغب فى رؤية الفتاة أو غيرها . . لأنها كانت تود ألا يشغلها شىء عن فتاها المحبوب .

ولم تدر الشاعرة بم تجيب الفتاة وبدت عليهـا الحيرة والضيق . . ولكن الفتاة لم تترك لها فرصة للحيرة فقد عاودت الحديث قائلة :

— الواقع يا سيدتى أنه لا شىء يبعث على الغبطة قدر أن يقابل المرء عظماء الناس . . ويجلس إليهم . . ويحدثهم .

وقطعت الفتاة حديثها ، فقد بدا الفتى فى باب الكوخ ، بقوامه الفارع ، وملامحه الجذّابة . . وأبصرت الشاعرة عينى الفتاة تبرقان بالإعجاب ، فأحست بشعور قلق مبهم ، وسألتها الفتاة بسذاجة :

— ترى من يكون ؟

— إنه صاحب الكوخ ، وزوجى فى المستقبل .

واقترب الفتى . . فقدمت إليه الفتاة قائلة :

— جارتكم الجديدة .

وسلم عليها الفتى باسماً مرحباً . وقالت الفتاة :

— إنه مما يشرف الناحية ياسيدى أن تنزل بها الشاعرة ، وسيسجل لها التاريخ ذلك .

وعلا صوت الفتى مقهقهاً وأجاب :

– لم أكن أظن أنك على هذا القدر من الشهرة . . أو ترين أن أهل هذه الناحية مصابون بداء الشعر ؟

وضاقت الشاعرة ذرعاً بمديح الفتاة . . وساءلت نفسها إذا كانت الفتاة تنوى أن تضيع عليها يومها بالاستمرار فى كيل ألفاظ المديح والإعجاب . . وأحست بشدة بغضها للشعر . . والشعراء . . ووجدت نفسها تقول للفتاة معتذرة :

– كنا ننوى التنزه على الشاطىء . . فلعل مغادرتنا لك لا تضايقك .

وحاولت الشاعرة أن تكون رقيقة فى اعتذارها . . ولكن جملتها بدت جافة . . حتى دهش الفتى لها بعض الدهشة وبدا على وجه الفتاة احمرار خجل طفيف . . وأجابت متلعثمة :

– بالعكس يا سيدتى . . أنا التى أخشى أن أكون قد ضايقتك بتطفلى . . ولكن عذرى فى ذلك هو شدة لهفتى إلى رؤيتك .

وشدّت الفتاة على يديهما ، ورغبت الشاعرة فى أن تعتذر عن خشونتها فقالت للفتاة :

ـ أرجو ألا تكفى عن زيارتنا بين آن وآخر . . فإن زيارتك تسعدنا .

وبرقت أسارير الفتاة وغادرتهما مغتبطة .

وانطلق العاشقان إلى البحر وبنفس الشاعرة بعض القلق والخوف والحقد ، والغيرة . . ولكن عند عودتهما كان كل ما بنفسها قد ذهب وحل محله الثقة والاطمئنان .

وفى المساء جلس العاشقان ينعمان بأحلام الحب وأمانيه العذبة . . إلى أن قال الفتى :

ـ لقد شغلنا الحب عن الحديث عن شعرك . . لقد أدهشتنى الفتاة بما قالت ، فإنى لم أسمع منك غير تلك الأبيات التى غنيتها فى أول لقاء .

ـ لا تصدق حديثها . . فأغلب ظنى أنها طفلة حمقاء . . ودعنا من حديث الشعر . . فلا أريد أن يشغلنا الآن شىء عن حديث الحب .

وفى اليوم التالى عادت الفتاة فى الصباح المبكر وهى تحمل معها رزمة من الورق ، واستقبلها الفتى مرحباً ، فسألته عن الشاعرة . . وأخبرته أنها تود لو تستطيع الفوز بتوقيعها على مجموعة الشعر التى سجلتها فى هذه الأوراق . .

وبعد هنيهة قدمت الشاعرة ، فما أن رأت الفتاة حتى عاودها القلق . . وسألتها الفتاة فى رفق وأدب أن تسمح لها بإمضائها .

ودهش الفتى عندما وقع بصره على مجموعة الأوراق المليئة بالشعر . . وأخذ يقلب صفحاتها بين يديه وسأل الشاعرة :

— كل هذا من نظمك أنت ؟

— نعم .

وسألته الفتاة فى دهشة :

— ألم تقرأ لها شيئاً ؟ ! إنى لم أشغف بشىء فى الحياة قدر شغفى بشعرها .

وأحست الشاعرة أنها لن تستطيع أن تحتمل المزيد من مدح الفتاة . . . وكان الجو يبشر بيوم شديد القيظ فاقترحت الشاعرة أن يذهبا للسباحة فى البحر . . ولكن الفتاة صاحت دهشة متعجبة :

— أنت تسبحين ؟ !

ونظرت إليها الشاعرة نظرتها إلى بلهاء أو مجنونة وسألتها فى هدوء :

ـ وأى غرابة فى ذلك ؟

ـ شاعرة . . تسبح ! . . لم أكن أظن أن العظماء يستطيعون السباحة ، إذ يخيل إلىّ أنه ليس لديهم وقت لذلك . . وإنهم لا يغادرون صومعاتهم التى يتلقون فيها الوحى .

ولاحظ الفتى تبرّم الشاعرة بالفتاة وأراد أن ينقذ الموقف فعرض أن يذهبوا جميعاً للسباحة . فبدا على الفتاة الفرح لهذا الاقتراح وانطلقت معهما إلى البحر .

وكانت الفتاة ماهرة فى السباحة فاندفعت فى البحر . . واندفع معها الفتى . . وحاولت الشاعرة أن تندفع . . ولكنها شعرت بالعجز والوهن . . وأحست أنها ـ كما قالت الفتاة ـ لا تعدو أن تكون شاعرة لا قِبَل لها بالسباحة . . وعادت الشاعرة إلى الشاطىء . . وغاب الفتى والفتاة عن بصرها فى جوف الماء . . ولم تستطع أن تمنع لوعة تسرّبت إلى نفسها . . ووجدت قدماها تسوقانها إلى الكوخ فعادت من حيث أتت .

وجلست فى حجرتها حزينة واجمة . . لقد أحست بخوف من الفتاة منذ أن وقع عليها بصرها . . لم تدر ماسبب الخوف .

ولكنها لم تستطع أن تمنعه وأحست بأنها مجهدة منهكة ، وغلبها الإعياء فراحت فى إغفاءة .

وعندما أفاقت كان الفتى والفتاة قد عادا .. وسمعت صوت الفتاة تتحدث .. فأنصتت قليلا .. فإذا بالفتاة تقرأ للفتى أشعارها .

وقامت الشاعرة وأصلحت نفسها فى المرآة .. وكانت تحس شعور المتأهب لقتال .. القادم على معركة .

وعند ما أبصر الفتى الشاعرة نظر إليها نظرة بها بعض الغرابة وقال :

— لقد حدثتنى عنك بما كنت أجهل .. وقرأت لى الكثير من شعرك .

ورغبت الشاعرة فى أن تنحو بالكلام ناحية أخرى فقالت :

— لقد أصابنى الإجهاد فى البحر .. لأنى فى حاجة إلى كثرة المران .

وردّت الفتاة فى رفق ولين :

— لا أظن العظماء فى حاجة إلى أن يجيدوا السباحة .

فهتفت الشاعرة فى خشونة :

— لا أظن هناك علاقة بين العظمة والسباحة .. ثم شيئاً

آخر . . أرجوك أن تكفى عن الزج بى فى معشر العظماء فما كنت منهم فى يوم من الأيام .

وانصرفت الفتاة بعد قليل ، وجلست الشاعر والفتى وحيدين ، وأحست الأولى أن بالجو شيئاً لم تعتده . . كأن ستاراً قد قام بينها وبين الفتى .

قالت : لِمَ لا تتكلم . . إنى أحس أن بنفسك شيئاً . . قله أياً كان . . فهو خير من الصمت .

— إنى أسائل نفسى . . ترى هل أصلح لك . . لقد أخفيت عنى حقيقتك . . كنت أعلم أنك تقولين الشعر . . ولكنى لم أعلم قط أن لك دواويناً يحفظها الناس عن ظهر قلب . . ما ظننت أنك عظيمة بهذا القدر . . ولكنى أتساءل الآن . . أيصلح هذا الفتى الموسيق الناشىء الذى لم يشق طريقه فى الحياة بعد لهذه الشاعرة العظيمة المتربعة على قمة المجد . . إنى لا أكره شيئاً فى الحياة قدر أن أكون الشريك الأضعف أو الأقل قدراً . . خير لنا أن ننتظر قليلا حتى أسير فى الطريق . . ثم أصبح نداً لك .

وأحست الشاعرة أن قلبها يهصره الألم ، وأحست بالدموع تترقرق فى عينيها وقالت :

— إذا كان الشعر هو كل ما فى الأمر . . فأعدك ألا أقول الشعر أبداً .

— هذا أسوأ ما فى الأمر . . فإنى سأكون بذلك حجر عثرة فى سبيلك .

ومرت الأيام بعد ذلك ثقيلة مملة . . لم يحدث بينهما شيء . . سوى أن تغير كل شيء ، ولم يفعل الفتى ما يحزنها ولكن لم يك يفعل كذلك أى شيء . . لقد خبا الشوق وذهبت اللهفة . . لقد انطفأت ثورة الحب التى كانت تتأجج بينهما .

وأخيراً أدركت الشاعرة أنه لم يعد هناك أمل فى نعيم أو رجاء فى هناء ، وأن الأيام تباعد بينهما رويداً رويداً . . فقررت الرحيل . . وذات صباح أنبأته بعزمها . وفهم الفتى فأطرق برأسه برهة . ولم يجب بشيء .

وأعدت الشاعرة حقائبها .

وهمت بمغادرة الدار . . فإذا بالفتاة تجلس فى الحديقة كما رأتها أول مرة ، ورفعت الفتاة رأسها وبدت عليها أمارات الدهشة والحزن وقالت :

— أبهذه السرعة ستغادريننا؟! كم أود لو تبقين بيننا مدة أطول ، ولكن هكذا العظماء دائماً سريعو الملل والسأم .

وحدجتها الشاعرة بنظرة فاحصة .. فبدا لها فى الفتاة شىء لم تتنبه إليه من قبل . . شىء جعل الدم يغلى فى عروقها . . لقد لمحت فى عينى الفتاة نظرات تهكم وسخرية وانتصار . . وبدت لها الحقيقة لأول مرة جلية واضحة . . لقد كانت لعبة فى يد الفتاة التى ظنتها ساذجة حمقاء . . سلبتها فتاها بطريقة عجيبة لم تخطر لها على بال قط . . لقد أحبت الفتى ووجدت أن الشاعرة لا عيب فيها ولا نقص تستطيع استغلاله لإبعاد الفتى عنها . . فلم تجد خيراً من الطريقة التى اتبعتها . . يالها من شيطانة ماكرة .

صاحت بالفتاة :

— أيتها الماكرة الخبيثة كفى هزلا وسخرية .. لقد حاولت أن تفهميه أن الفرق بيننا شاسع بعيد ، وأن أحدنا فى القمة والآخر فى الحضيض ، وغرست فى نفسه أن أحدنا لا يصلح للآخر كى تأخذيه لنفسك . . لقد ظننتك حمقاء ، ولكن كنت أنا الحمقاء .

وبدا الفتى فى تلك اللحظة على الباب فصاحت الشاعرة باكية :

— إنى أمقتكما !!

وانطلقت تعدو إلى الشاطىء هاربة من الكوخ . .

وهنـاك استقرت لحظة على إحدى صخور الشاطىء وقد تلاحقت أنفاسها ، وبعد برهة قصيرة خيل إليها أنها تسمع وقع أقدام خلفها فأدركت أنه صدى الذكرى الماضية .. ولـكنها أحست فجأة بشفتين على عنقها وانتقلت الشفتان إلى العينين المبللتين بالدموع واستقرتا أخيراً على الشفتين ، ولو خيرت الشاعرة بين لذة هذه اللحظة ، وبين العمر كله ، لا ختارت تلك اللحظة . . لقد فهم الفتى كل شيء ولم يعد يخشى شيئاً ، وصمم أن يبلغ إلى قمة المجد حتى يتساويا وطلب منها أن تنشده بعضاً من شعرها . . فغناه لها . . وراحا في نشوة من الهوى والشعر والغناء .



ليالى الطفولة

لم تكن لى أمنيـــة فى ذلك الوقت إلا السكنى فى ذلك البيت « المسكون » . . ولم يكن ذلك حباً منى فى الجن والأرواح التى كانوا يدعون أنها تسكنه . . ولا كان عن رغبة فى مشاكستها ومعاكستها . . بل كان كل ما يستهوينى فيه ، هو شجرة التوت العالية التى تطل بفروعها المورقة من الحديقة الصامتة الموحشة .

كنت وقتئذ فى الثانية عشرة . . وكنا نمـــر على الدار المسكونة كل صباح عند ذهابنا إلى المدرسة . . ولم يكن يلذ لنا شىء قدر أن نمد أعناقنا الصغيرة من خلال قضبان السور الحديدى لنستطلع ماوراءه من أشجار متكاثفة متعانقة .

وكانت الحديقة تبدو لنا أنها بحر خضم لا تكاد تبلغ العين مداه . . وكانت عقولنا الصغيرة تتخيلها مليئة بالسحر والأسرار .

وما زلت أذكر تلك الأيام التى كنا نستيقظ فيها وضوء الشمس لم يظهر بعد . . فنتسلل من دورنا خفية لنذهب إلى الدار المسكونة قبل أن يستيقظ حارسها الأسود العجوز . . فنتسلق السور ونقطف أوراق التوت الذى كنا نحتاج إليه لتغذية دود القز الذى كانت تستهوينا تربيته .

وكان بيننا وبين الحارس « عم محمد » وهراوته « ما صنع الحداد » وإنى لأعجب الآن ماذا كان يود ذلك الأبله العجوز أن يصنع بورق التوت ، ولأى أمر كان يحرّمه علينا ويجرى وراءنا بهراوته صاخباً مهدداً عندما يضبطنا متلبسين بجريمة « الشعلقة » على السور .

وتطوّر الأمر من رغبتنا فى قطف « ورق التوت » إلى رغبتنا فى معاكسة « عم محمد » واستثارة غضبه . . والعبث به ، والسخرية منه . والواقع أننا قد برعنا فى هذا الأمر وتفنننا فيه . وإنى لأذكر ذلك اليوم الذى وطدنا فيه النية على أن نقتحم الحديقة . . ونرتع فيها كما نشاء . . ونستكشف خباياها ونستطلع أسرارها . . وذهبنا إلى الدار ومع كل منا هراوة وقد صممنا على ألا نفر من « عم محمد » . . بل نواجهه مواجهة الند للند . . ونطلب إليه أن يسمح لنا بالدخول ، فإن رضى كان بها ، وإن أبى فهو الجانى على نفسه . . وهو المسئول عما سيحدث له نتيجة « العلقة » الساخنة التى صممنا على أن نعطيها له .

وعندما وصلنا إلى الدار لم نجد صاحبنا على بابها . . ووجدنا الباب غير مغلق . . وناديناه فلم يجبنا أحد . . وخشينا إن تسللنا أن يكون الرجل قد وضع لنا كميناً ، فترددنا برهة ،

ولكن أحدنا وهو « محمود . . ادى بولو » (هكذا كان يسمى نفسه تشبيهاً بأحد أبطال السينما) كان أكثرنا جرأة وأشدنا « عفرتة » . . فاقتحم الباب بخطوات ثابتة . . واختفى داخل الحديقة .

وبعد برهة قصيرة سمعنا منه « صفارة طويلة » ورأيناه قد أقبل فى تؤدة وقد وضع يديه فى جيوبه كأنه يسير فى حديقته الخاصة . . ثم أشار إلينا بكبرياء أنه يمكننا الدخول .

ولكننا ترددنا وسألناه فى أصوات هامسة :

— وعم محمد ؟

— لقد سجنته . . وكفى الله المؤمنين القتال .

ثم علمنا منه أنه وجده منهمكا فى الصلاة فى حجرته . . فما كان منه إلا أن أغلق الباب عليه بالمفتاح ووضع المفتاح فى جيبه ، وترك الرجل يصلى فى هدوء ما شاء له أن يصلى .

وكان يوماً مشهوداً من الأيام التى لا يجود بمثلها الدهر ، أو هكذا هو على الأقل ما كنا نظن وقتئذ .

هذه الحديقة الساحرة العجيبة التى كنا ننتشى لمجرد أن نمد فيها رؤوسنا من بين قضبان السور الحديدى . . قد أضحت اليوم ملكا خاصاً لنا لا يشاركنا فيها أحد . . و « عم محمد » عدونا اللدود . . قد أضحى حبيساً مع هراوته . . لا يملك

كلاهما لنا ضراً ولا أذى .

وكان الوقت ربيعاً ، وكل ما فى الحديقة ملوّن مزدهر وأشجار المشمش قد رصعت بالزهور البيضاء كأنهن فصوص الماس ، وأزهار البرتقال قد تفتحت وفاح منها العبير وانتشر الشذى ، والنباتات كلها تكاد تتفجر من فرط الحياة .

وانطلقنا فى أنحاء الحديقة . . وتسلقنا أشجارها ، وقطفنا الزهور والثمار ، وأغرقنا الحديقة بالمياه ، وعبثنا ما شاءت لنا طفولتنا أن نعبث ونمرح ، ومثلنا كل أدوار البطولة التى رأيناها على الشاشة البيضاء من « طرزان » و « توم ميكس » .

وأخيراً . . وبعد أن أعيانا التعب . . وبعد أن استنفدنا كل ما نملك من قوى فى الجرى والقفز . . وبعد أن انتهت كل ما لدينا من وسائل اللعب . . وبعد أن قلبنا أعلى الحديقة أسفلها ، وأسفلها عاليها ، وشققنا فى أرضها « حوض البحر الأبيض » و « نهر النيل » . . ورفعنا فيها « جبال الهملايا » ، و « هضبة التبت » ، وصنعنا من أفرع الشجر سفناً ومعابر وأكواخاً وقصوراً . . ولم نترك زهرة واحدة باقية على فروعها ، ولا طيراً واحداً هادئاً فى وكره . . أخيراً . . وبعد كل هذا فكرنا فى العودة إلى دورنا .

وهنا وجدنا أنفسنا فى مأزق حرج . ماذا نصنع بعم محمد؟

لم يكن أمامنا إلا أحد أمرين : إما أن نتركه فى سجنه فيموت جوعاً . . وإما أن نفتح له فيميتنا ضرباً .

وفيما نحن حيارى . . رأينا « ادى بولو » يتركنا ويعدو إلى آخر الحديقة ثم يعود ومعه حبل طويل ورأينـــاه يخرج المفتاح من جيبه فيربطه فى طرف الحبل ، ويعطيه لأحدنا ويأمره بأن يمسك به جيداً . . ثم يسير هو بالطرف الآخر فيذهب إلى حجرة الرجل .

وطرق الباب بيده طرقة خفيفة ونادى :

— عم محمد .

وهنا سمعنا صياحاً وضجيجاً كأن فى الحجرة ثوراً هائجاً وعلت من الحجرة ألفاظ السباب . . ووصلت إلى آذاننا كلمات التهديد والوعيد ، فشعرنا بالفزع والخوف . . وانتهز « ادى بولو » لحظة صمت من الرجل فصاح به :

— إسمع ياعم محمد . . إذا كنت تنوى أن تستمر على هذا الهيجان والحمق فلن نكون مسئولين إذا تركناك تموت جوعاً فى حجرتك كالكلب الغبى . . وإذا كنت تريد الحياة فاسمع إلىّ قائلا :

وسكن الرجل وأصغى . . فاستمر صاحبنا فى الحديث :

— سأعطيك المفتاح من أسفل البـاب . . ولكن ليس

مباشرة حتى لا تفتح الباب وتلاحقنا بهراوتك ، بل سأعطيك طرف حبل ربط المفتاح فى آخره .. فما عليك لكى تأخذ المفتاح إلا أن تستمر فى جذب الحبل . حتى يصل إليك المفتاح .

ثم مدّ يده فأدخل طرف الحبل من أسفل الباب واتجهنا إلى باب الحديقة ومعنا الحبل الذى ربط به المفتاح وأخذ الرجل يجذب الحبل من ناحية ، ونحن من ناحية فما وصلنا إلى الباب حتى كان الحبل قد امتد بطوله بين الحجرة وباب الحديقة ، فألقينا المفتاح ، وولينا الفرار .

* * *

وعدنا إلى دورنا .. كأننا لم نرتكب أمراً إدّاً ، ولا فعلا نكراً ، وتسللت من الباب واتجهت رأساً إلى الحمام حتى أزيل ما علق بى من طين وأوساخ .

وذهبت إلى حجرة الأكل ، ودار الحديث بين أبى وأمى عن أن البيت الذى نقطنه لم يعد صالحاً لنا ، وأنه يفكر فى الانتقال إلى بيت أوسع ، وأنه لا يدرى ماذا يمنعنا من أن نستأجر البيت الذى يدعى الناس أنه « مسكون » فليس هناك فى الناحية بيت فى مثل فخامته ولا ضآلة أجره .

وكدت أقفز من مكانى لفرط الفرح وصحت بأبى :

— أقسم لك أنه ليس مسكوناً ، وأن الأمر لا يزيد على إشاعة كاذبة .

وشعرت بيد أمى تمتد من خلف المنضدة ،فتقرصنى قرصة لا ذعة فى « اللباليب » وتنهانى زاجرة ثائرة :

— لقد قلت لك ألا تتدخل فيما لا يعنيك . . كل وانت ساكت .

ثم وجهت الحديث إلى أبى ، وشرر الغضب يتطاير من عينيها :

— لم أر فى حياتى قط من هو أسخف منك إلا ولدك ولا من ولدك إلا أباه .. أتريد منى أن أقطن فى هذا البيت الموحش المخيف ، إن السكنى فى المقابر خير عندى وأفضل !

ولكنى أبى — بارك الله فيه — استطاع أن يقنع المرأة العنيدة بأن تذهب لترى البيت ، فقد يتغير رأيها عند ما تراه ،

ولو أخبرونى وقتئذ أننى قد صرت إمبراطوراً للعالم لما كانت فرحتى بأشد منها عند ما عادت أمى وأخبرتنا أنها قد وافقت على الانتقال إلى البيت « المسكون » .

وكان فرحى فى الواقع قد بلغ حد الجنون ، حتى لقد رحت أرقص فى الحجرات من فرط الطرب . . . من كان يظن هذا ؟

هذه الحديقة الواسعة ستصبح حديقتنا وشجرة التوت ستصبح كلها ملكا لى . . وسأدخل صبية الناحية ، يأخذون من ورقها ما شاءوا . . وهم آمنون مطمئنون من شر « عم محمد » .

ولم يكد يخطر على بالى « عم محمد » حتى قفزت من مكانى كأن بى مساً من جنون ، وصحت أخاطب نفسى :

ــ عم محمد ! « وقعت والا الهوى رماك » ، من كان يتخيل أن هذا الحيوان الأسود العجوز ، الذى طالما نالنى من هراوته الشيء الكثير . . سيصبح تحت رحمتى . . لقد أصبحت من الآن سيده ، وسأثأر منه لكل أطفال الناحية .

وانتقلنا إلى دارنا الجديدة ، وكان فرحنا بها لا يقدر ، فقد كانت الدار فاخرة حقاً . . وكانت بها كل وسائل الراحة والرفاهية . . وكان من السخف أن نترك مثل هذه الدار طوال تلك المدة الطويلة . لا لشيء إلا لمجرد إشاعات كاذبة أنها مسكونة بالجن والأرواح .

وكان يبدو على « عم محمد » أنه لم يكن مرتاحاً لسكنانا فقد أخرجناه من مكمنه وأزعجناه فى مأمنه ، وحرمناه من هدوئه الذى اعتاده وسط الدار الفسيحة ، الخاوية على عروشها .

وأزعجه أكثر من ذلك وحزّ فى نفسه أن هؤلاء الصبية الذين كانوا يخشون جانبه، ويفزعون من رؤيته.. قد باتوا يأمرونه فيذعن للأمر، ويزجرونه فيزدجر... وفقد سلطانه عليهم وعلى الدار. فاستباحوا حماها.. وانتهكوا حرمتها.

ومرت الأيام ونحن نرتع فى الدار ونمرح، حتى حدث ذات ليلة ما روّعنا وملأ نفوسنا فزعاً.

سمعنا صوت أنين بدأ خافتاً، ثم أخذ يعلو رويداً.. رويداً، ثم انقطع فجأة.. وفى الصباح نقب أبى فى أنحاء الدار عله يعثر على مصدر الأنين، فقد يكون قطة مريضة أو كلباً جريحاً، ولكنه لم يعثر على شىء.

وفى الليلة التالية سمعنا الأنين نفسه، وزاد عليه بعض الصراخ الذى جعلنا نكمش فى أغطيتنا، وجعلت «أمى» تقسم أن تترك الدار عندما تشرق الشمس.

وفى الصباح أرسل أبى فى طلب «عم محمد» وسأله عن سر ذلك الأنين والصراخ، فأطرق الرجل برهة ثم أجاب:

– إنه صوت الفتاة السجينة.

وسأله فى دهشة:

– الفتاة السجينة؟ هنا فى الدار فتاة سجينة؟

وهزّ الرجل رأسه ببساطة علامة الموافقة ، فصاح به أبي في سخرية :

ــ ومن الذى أجبرها على أن تظل سجينة حتى الآن ؟ ولِمَ لا تنطلق إلى حيث تشاء ؟ وفى أى حجرة تنزل هذه السجينة الحمقاء ؟

ــ إنها فى « البدروم » ياسيدى . . وقد سمعت قصتها من أبى الذى سمعها من جدى . . لقد قال لى إن هذه الدار كان يملكها فى غابر الزمن أمير كريم المحتد . . عريق المنبت وسيم الطلعة ، متين البنيان ، وكان يعيش فى الدار مع أمه وأختيه . . وكانت أمه تود أن تزوّج ابنها بإحدى الأميرات ولم يكن لدى الأمير اعتراض على ذلك ، فقد كان خالى القلب ، وسارت الأمور على خير حال . . حتى حدث ذات مرة أن صدمت عربة الأمير فتاة فقيرة فى عرض الطريق ، فجرحت الفتاة ورق الأمير لحالها فحملها إلى بيتها وأحضر لها طبيباً وداوم على زيارتها والعناية بها .

وبرأت الفتاة من جرحها . . ولكنها وجدت نفسها قد أصيبت بجرح آخر أعمق أثراً ، كان من العسير عليها شفاؤه إذ كان جرحاً فى القلب لا فى الجسد ، فقد أحبت الفتاة الأمير حباً يائساً ووجدت نفسها تتخبط فى هوى لا أمل فيه .

ووجدت الفتاة أن الأمير لم يكف عن زيارتها حتى بعد برئها ، وأن عطفه قد ازداد عن ذى قبل . وأخيراً اتضح للفتاة أن الأمير قد بات هو الآخر صباً مولعاً .

واندفع الأمير فى تيار الهوى فتزوّج الفتاة وحملها إلى الدار . . وقدمها إلى أختيه . فأصابهما الذهول ، ولكنهما تمالكتا نفسيهما ، وتصنعتا الترحيب بها .

وأحنق الأم أن يتزوّج ابنها مثل هذه الفتاة الفقيرة . . ولم تطق الفتاتان وأمهما أن تصبح الفتاة الوضيعة الأصل ربة الدار . . فعقدن النية على التخلص منها بأى حال .

وفى ذات يوم غاب الأمير عن الدار فى رحلة تستغرق بضعة أيام ، فاستدرجن الفتاة إلى القبو « بالبدروم » ودفعن بها إلى داخله وتركنها حبيسة فيه .

وظلت الفتاة فى القبو مذهولة مشدوهة ، ثم بدأ الجوع يمزق أحشاءها ، فأخذت تستنجد وتستغيث ، وعلا أنينها وصياحها حتى بحّ منها الصوت وارتمت جثة هامدة .

وعاد الأمير من رحلته فأنبأوه أنها فرت هاربة . . فجن الرجل . . وترك البيت هائماً . . هذه هى القصة يا سيدى . . ومن يومها والأنين والصياح لا ينقطعان أبداً من القبو .

وانتهى حديث « عم محمد » وبدا علينا جميعاً التأثر واستقر

الرأى على أن نغادر الدار بمجرد العثور على دار أخرى .

واجتمعت بأصدقائى من الصبية ، فقصصت عليهم النبأ ، فأحزنهم أن يحرموا مرة ثانية من الحديقة . . وأن يعود « عم محمد » إلى مطاردتهم بهراوته .

وانصرف الجميع . . ولكن محمود أو (ادى بولو) لم ينصرف . . ورأيته يقترب منى ويهمس فى أذنى أنه يخشى أن يكون فى الأمر دسيسة من « عم محمد » يراد بها إخراجنا من البيت . . ثم اتفق معى على أن نتسلل ليلا لمراقبة « عم محمد » والتقينا فى الليل واختبأنا خلف شجرة أمام حجرة « عم محمد » وأخذنا ننتظر .

ولم تمض برهة قصيرة . . حتى رأينا الرجل قد خرج من حجرته ملتحفاً بعباءة سوداء ، وأخذ يتسلل حتى وصل إلى القبو ، وتلفت يمنة ويسرة . . ثم بدأ يخرج ذلك الأنين والصراخ الذى كان يملؤنا فزعاً وهلعاً .

وعاد الرجل إلى الحجرة ، وطلب منى صاحبى ألا أخبرَ أحداً بما يفعله عجوز النحس . . وأن أقابله فى الليلة التالية ، واتفق معى على الدور الذى سنقوم به .

وفى الليلة التالية سبقنا الرجل إلى القبو ، وانتظرناه هناك قابعين فى الظلمة ، وعندما سمعنا وقع أقدامه تقترب بدأ صاحبى

يصدر من فمه أنيناً يشبه ذلك الذى يصدره العجوز ، فوقف مكانه متسمراً لا حراك به وقد عقد الفزع لسانه ، وبدأت أنا أتكلم فى صوت خشن مقلداً صوت الرجال :

— ماذا يبكيك يافاتنتى ؟

وردّ صاحبي مقلداً صوت الفتاة :

— لقد سجنونى فى القبو ، وتركونى بلا طعام ، وأشعر بالجوع يلهب أحشائى .

— اطمئنى ياحبيبتى . . فإنى سأحضر لك طعاماً شهياً . . سأحضر لك « لحمة رأس » رأس أسود عجوز ، ولكنها بلامخ . . لأن صاحبها أحمق شرير .

ولم يكمل صاحبي حديثه ، فقد سمعنا « عم محمد » يصرخ صرخة مدوية ، ورأيناه يولى الأدبار كأن به مساً من شيطان رجيم .

وفى الصباح لم نر « لعم محمد » أثراً فى حجرته . . فقد فرّ من البيت . . ولم نعد بعد ذلك نسمع أنين الليل وعويله ، ولم يعد أحد يدعى بعد ذلك أن البيت مسكون . . اللهم إلا رجلا واحداً . . كان يؤمن فى قرارة نفسه أن البيت مسكون حقاً . . ولم يك يجسر أن يقترب منه قط . وذلك هو « عم محمد » .



عفريتة الليل

كان الوقت إبان الظهيرة . . وقد أظلتنى من وهج الشمس شجرة عتيقة كأنها والزمن صنوان . . وجلس العجوز أمامى يسبح بمسبحة فى يده ويتمتم بألفاظ لعله يستغفر ربه . . وبدا البيت أمامى كأنه قلعة ضخمة من قلاع العصور الوسطى . . فوددت لو استطعت أن أخترق ببصرى تلك السحب المسدلة من الجدران الضخمة حتى أبصر مابداخلها من الأحاجى والأسرار . . وقلت للعجوز أستحثه على الكلام :

— تقول إن هذه الدار لم يقطنها إنسى قط ؟ أتقصد بذلك أنه قد يكون بها سكان من نوع آخر ؟

— نعم يابنى . . لقد استبدلت الدار سكاناً بسكان . . لقد كانت الدار تعج بالحياة . . فأصبحت تضج بالصمت والعدم ، ولو أنى لم أرها قط إلا فى هذا الصمت والعدم . . فمنذ أن وعيت على هذه الدنيـــا ، وأنا أبصرها كما تبصرها الآن . . موحشة كئيبة . . مقفرة مظلمة . . ولـكن أبى قد أنبأنى بقصتها التى سمعها عن أبيه عن جده . . فقد توارثت عائلتنا الحراسة فى هذه الدار جيلا بعد جيل . . حتى أصبحنا لازمة من لوازمها كهذه الشجرة التى تظلنا الآن .

تبدأ قصة هذه الدار فى غابر الزمن عندما كانت قصراً لحاكم المدينة وكان رجلا حكيما عادلا . . وكانت قلوب الرعية تفيض بحبه والولاء له . . ولكن البلاد كانت ترزح فى ذلك الوقت تحت نير سلطان أجنبى . . وكان على حاكم البلدة أن يؤدى له جزية سنوية فادحة . . فى إحدى السنين طلب منه السلطان أن يضاعف الجزية ، ووجد الحاكم أن ذلك إفراط فى الحيف والظلم . . فرفض أن يجيب السلطان إلى مطلبه وأعلن العصيان .

وكان السلطان فتى طائشاً أحمق فتملكه الغضب وأمر بأن يجهّز جيشاً لتأديب ذلك الحاكم العاصى .

وبدأ الحاكم يكوّن جيشاً من أهل المدينة لصد الجيش الغازى . . وسرعان ما احتشد أهل المدينة وقد تناولوا كل ما استطاعت أن تصل إليه أيديهم من أسلحة وهراوات ، وفؤوس . . واصطدم جيش الطغاة بأهل المدينة البواسل ففتك بهم فتكاً شديداً . . وتحصن الحاكم وبعض من جنوده فى هذه الدار . . فلم تطل مقاومتهم إلا فترة وجيزة . . استطاع الغزاة أن يقتحموا بعدها الدار فسقوا الحاكم ورجاله كأساً دهاقاً ومزّقوا جثثهم إرباً إرباً .

وسيقت النساء سبايا . . وبدأ السلطان الأحمق يستعرضهن

واحدة واحدة . . وكانت أولاهن ابنة الحاكم ، فأُخذَ الفتى بجمالها . . ولم يستطع أن يقاوم بريق عينيها أو سحر شفتيها ، ولم يحاول أن يرى غيرها من السبايا . . بل أمر حاشيته وقواده بأن ينصرفوا عنه ويتركوه مع الفتاة .

وقع السلطان فى شرك هواها وحاول أن يستميلها إليه . ولكن قلبها كان يفيض بالبغض والكراهية له . . ولم يُجْدِ إغراؤه إياها بالزواج . . وبأن تكون ملكة متوجة ، فقد استمرت تلقاه فى جمود كأنها جسد بلا روح . . وأخيراً نفد صبره . . فصمم على أن ينتزع منها الحب انتزاعاً . . فأمر بأن توضع فى قبو فى أسفل الدار . . وأحضر أحد البنائين وأمره بأن يقيم جداراً يسد به باب القبو ، فلا يترك منه إلا فتحة ضيقة . . وأنبأ الفتاة أنه سيدفنها حية فى هذا القبو إن استمرت على ازدرائها إياه واحتقارها له . . وأخبرها أنه سيترك لها فرصة يوم لتنبئه بما استقر عليه رأيها . . وأن عليها الآن أن تختار بين حبه وبين هذه الميتة المخيفة .

وفى اليوم التالى نزل الفتى إلى القبو وسألها : أما زلت مصرّة على نفورك ؟ . . ولكن الفتاة استنكفت أن تجيبه . . فما كان من الطاغية إلا أن سد الفتحة الباقية من الجدار . . وترك الفتاة حية فى قبرها .

وفى نفس اليوم اشتعلت بين جنود الفتى فتنة فثاروا عليه وهاجموا القصر ، فحاول تهدئتهم ، ولكن أحد الجند طعنه فى صدره فخر إلى الأرض صريعاً ، وأحس أن نهايته قد أخذت تدنو وشعر بالندم يحزه على حبسه الفتاة حية فى ذلك القبو .. وبدأ يتحامل على نفسه فأمسك بفأس وأخذ يزحف بها نحو القبو حتى وصل إلى ذلك الجدار الذى أقامه ، وهمّ برفع الفأس ليثقب الجدار ، ولكن قواه خانته فهوى إلى الأرض جثة هامدة .. وبقيت الفتاة حبيسة فى قبرها .. وبعد بضعة أيام ثار أهل المدينة فطردوا جيش الغزاة .. واستردوا دار الحاكم ولكن أحداً لم يجسر أن يقطنها أو يزاحم هذين الروحين اللذين يأبيان أن يفارقاها .. فإحداهما حبيسة فى القبو والأخرى حائرة أمام الجدار تحاول إخراجها .

وصمت العجوز فكدت أنفجر من فرط الضحك .. يا للأقصوصة الممتعة ! أهذا هو ما يخيف الناس من سكنى الدار ! ! روح سجينة فى القبو وروح تحاول هدم الجدار .. أمن أجل هذه الخرافة المضحكة التى يرويها العجوز الأحمق تبقى الدار مهجورة مقفرة طوال تلك السنين ؟ .. وإذا كانت تلك العقول الضيقة قد صدقت هذه الأسطورة الركيكة .. فلمَ لا يحاول أحدهم أن يدخل الدار فيهدم بنفسه ذلك

الجدار ويطلق الروحين الحائرين إلى حال سبيلهما ؟ !

ونظر إلىّ العجوز نظرته إلى طفل أبله .. ثم هز رأسه وقال فى هدوء :

— يابنى . كف عن السخرية فما رويت لك إلا ما سمعت. وما أظن أن أبى قد روى لى الكذب .. وعلى أية حال ، فهب أن القصة كلها محض خرافة .. فماذا ترى فى أولئك الذين سخروا منها كما سخرت أنت ، وحاولوا أن يقطنوها ، فلم تمض بضعة أيام إلا وقد رزئوا بموت واحد منهم ، فعجلوا بالفرار منها وتركوا الدار بتحفها الثمينة ورياشها الفخمة .. دون أن يجسروا على العودة إليها قط .

— أما إنهم رزئوا بموت واحد منهم .. فلا أظن الدار لها دخل فى ذلك الأمر .. إلا إذا كنت تظن أنهم مخلدون فى الحياة .. وأما أنه مات بعد بضعة أيام من سكنهم الدار فالمسألة لاتعدو أن تكون مصادفة .

وتشعب بى الحديث مع العجوز فى نواح مختلفة حتى أحسست بقرصة الجوع تلذع أحشائى ، فعدت أدراجى إلى الفندق الذى أنزل فيه والذى يبعد كثيراً عن الدار .

ولم يكد الظلام يسدل ستوره حتى وجدتنى أعود أدراجى إلى الدار .. لقد كنت فى لهفة إلى التسلل إليها والتجول فى حجراتها ورؤية مابها من تحف مهجورة معطلة ، ولم يكن يلوح

لى أى أثر قريب أو بعيد لتلك الأرواح التى حدثنى عنها العجوز فما كنت أومن قط فى أية لحظة من لحظات حياتى أن هناك عفاريت أو شياطين أو ما يشابههما ، وما كنت لأشغل ذهنى بالتفكير فيما هو ليس بكائن إلا فى الأوهام والأحلام .

ولم تكن هناك أية صعوبة فى التسلل إلى الدار ، فالعجوز كثير النوم بطىء الحس . . وهو لايخطر لباله قط أن هناك من يجرؤ على الاقتراب من الدار . . بله اقتحامها والتهجم على سكانها من الأرواح والأشباح .

وقفزت على السور . . ثم عالجت إحدى النوافذ بفأس عثرت عليها فى أرض الحديقة فلم أجد صعوبة فى فتحها . . وبعد هنيهة وجدت نفسى فى حجرة موحشة ، شديدة الظلمة ، فأشعلت عود ثقاب تبينت على ضوئه بضع شموع فى ركن الغرفة فأسرعت بإشعالها . . وسرت أتجوّل فى الدار . . فإذا بها دار رحبة فسيحة مليئة بالتحف القيمة والتماثيل والصور . . ولم أجد بها قط مايخيف أو يثير الذعر . . وأخذت أفكر فى سخف الإنسان الذى يهجر مثل هذه الدار خوفاً من أرواح مزعومة . . واستعدت فى رأسى تلك القصة التى سمعتها من العجوز . . فوجدتنى أضحك مرة أخرى . ولكنى توقفت عن الضحك فجأة . . إذ سمعت حركة خفيفة . . وخيل إلىّ أن هناك وقع أقدام تقترب . . فخشيت أن يكون الحارس قد تنبه

من غفلته وأبصر بضوء الشموع يبدو من خلال النوافذ فدخل الدار يستجلى الأمر . . وخشيت أن يظننى العجوز لصاً قد اقتحم الدار يبغى السرقة . ، فيصيح مستنجداً بأهل الناحية . . وأقع أنا فى مأزق الله أعلم بنهايته .

ولم أدر كيف أجيب إذا ما سئلت عن سبب وجودى فى ذلك الوقت من الليل فى هذه الدار الخاوية .

وتخيلت نفسى أعدو وخلفى «كل من هب ودب» من صبية ورجال . . ثم رأيتنى قد وقعت فى أيديهم ، فتهافتوا على ضربى ولكمى كأنهم كانوا ينتظروننى بفارغ الصبر .

ولم يأخذ منى التفكير فى هذا المنظر البغيض إلا ثوانى معدودات برق لى على أثرها خاطر وجدت فيه خير منقذ من هذا المأزق الحرج . . بل وجدت فيه تسلية وحبوراً .

هذا العجوز الأحمق الذى أسمع وقع أقدامه تقترب والذى سيضبطنى بعد لحظات متلبساً بجريمة السرقة . . ليس هناك أسهل من خداعه . . فلاشك أنه يؤمن إيماناً قوياً بوجود أرواح فى الدار . ، فلمَ لا أكون أنا أحد هذه الأرواح فأجعله يفر أمامى مرتعداً ويعود أدراجه من حيث أتى .

وفى لمحة عين قعدت مكانى وأمسكت بالفأس التى فتحت بها النافذة ، وجذبت غطاء أبيض فلففت به جسدى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى وأطفأت الشموع ووقفت أنتظر . .

وساد السكون . . فلم أعد أسمع بعد ذلك وقع الأقدام التي كانت تقترب . . وخيل إلىّ أن العجوز قد عاد أدراجه وكفى الله المؤمنين القتال . . فأحسست بالضيق . . وتحوّلت رغبتى من الفرار والنجاة . . إلى رغبة فى الهزل والمزاح . . ووجدت أن هذه الفرصة — فرصة أن يكون المرء عفريتاً أو جنياً أو روحاً — قد لا تسنح لى مرة أخرى فى هذه الحياة . . فخطوت بضع خطوات فى الظلام ، ودلفت إلى الحجرة التى تخيلت أنى سمعت صوت الأقدام يصدر من ناحيتها . . وقد أمسكت بالفأس وجمعت أطراف الملاءة البيضاء حول جسدى فلم يبد منها إلا عيناى . . وانتظرت أن أرى العجوز وقد تسمر فى مكانه من فرط الفزع .

ولكنى بدلا من أن أرى العجوز . . رأيت عفريتاً قد اتشح بالبياض ، وملكتنى الحيرة فلم أدر كيف أبدأ الحديث.

وأخيراً تحدث العفريت ليسألنى من أكون . . فإذا بصوته ملىء بنعومة ورقة ، من النوع اللطيف . . .فأدركت أنها « عفريتة » . . واطمأن قلبي قليلا . . ورأيتنى أعود بذهنى دون أن أدرى فأستعيد قصة العجوز . . وقلت لنفسى إن صاحبتنا لا بد وأن تكون الفتاة سجينة القبو . . وأحسست برجفة تسرى فى بدنى فقد خشيت أن تظننى الفتى الذى سجنها فيكون نصيبى منها عداوة لا أستحقها . .

فأسرعت لنفى الشبهات عن نفسى ولأبين لها حسن نيتى .

قلت : الظاهر أنى تأخرت قليلا . . فقد كنت فى طريق إلى القبو لأطلق سراح سيدتى . .

وسادت فترة صمت قبل أن تقول :

— أبعد هذه القرون التى مضت . . جئت الآن تفكر فى إطلاق سراحى ؟ !

يا للسخرية ! ! إذن فهذه العفريتة البلهاء تظننى عفريتاً ! ! والله ما ظننت قط أن العفاريت بمثل هذه السذاجة !

واقتربت من الشبح الأبيض وجثوت على ركبتى وقلت هاتفاً : — هذه القرون التى ولت . . لم تزدنى إلا لهيباً .

وخيل إلىّ أن أبصر ابتسامة سخرية تلمع فى عينى العفريتة . . ثم سمعتها تقاطعنى بصوت يغلبه الضحك : — ضم الملاءة قليلا إلى جسدك . . فالعفاريت لا يلبسون « البنطلون » .

ونظرت إلى أسفل فإذا بالملاءة قد انحسرت عن ركبتى فظهر « البنطلون » .

يا للكارثة . . لقد اكتشفت الخبيثة كذبتى . . وشعرت بالحيرة تتملكنى ولم أستطع إلا الاستمرار فى الكذب فسألتها: ومن حرّم على العفاريت لبس « البنطلون » . . أليس فيه ستر من العرى ؟ . . إن كان « البنطلون » يعتبر لديك مانعاً من أن أكون فى زمرة العفاريت . . فأظن أن المسألة بسيطة جداً .

ثم مددت يدى إلى الحزام وهممت بخلع البنطلون . .

وبدت من العفريتة صرخة خجل ورأيتها ترفع يدها فتحجب بها عينيها . . بينما انحسرت ملاءتها قليلا . . فأبصرت منها ما جعلنى أشك كثيراً فى سلامة عقلى ! !

يا للذكاء الذى خبا . . والعقل الذى ضل . . هذه العفريتة لابد وأن تكون آدمية من لحم ودم ، فأغلب ظنى أنها قدسمعت من الحارس العجوز القصة كما سمعتها وساقها حب الاستطلاع كما ساقنى . . ثم أحست بضجتى كما أحسست بضجتها . . ففعلت كما فعلت والتقينا نحن الاثنين . . ولكنها كانت أكثر منى ذكاء فكشفت أمرى قبل أن أكشف تدبيرها .

ولم أر خيراً من أن أقوم فأحتضن الفتاة وأوسعها لثماً وتقبيلا . . وحاولت التخلص من ذراعى صائحة : « إنى أمقتك . . إننى أفضل العودة إلى سجنى فى القبو المظلم » !

يا للفتاة الحمقاء . . أما زالت مصرّة على أنها عفريتة ! ! . . إذاً ليكن لها ما تشاء . . ورفعت الملاءة من الأرض فلففت بها نفسى وأمسكت بالفأس . . وسألتها التكرم بلقاء آخر .

وفى اليوم التالى تسللت إلى الدار وارتديت ملابس العفاريت . . وبعد لحظات أحسست بوقع أقدام العفريتة متشحة بملاءتها البيضاء . . وكان بيننا حديث ذو شجون . . وعند ما افترقنا كانت العلاقات بيننا علاقة ود وصداقة . وتكرر اللقاء بيننا . . فى نفس الموعد وبنفس الطريقة . . وبدأ الحب ينشب مخالبه فى قلبينا رويداً رويداً .

وأخيراً أبصرت العفريتة للمرة الأولى فى وضح النهار . . ورأتنى هى الأخرى . . وليتها ما رأتنى . . فقد كنت أسير مع إحدى صاحباتى .

وفى المساء ذهبت إلى الدار . . وانتظرتها فلم تحضر . . ومضت بضعة أيام وهى ممعنة فى هجرها . . وأخيراً التقيت بها فجأة فى صبيحة ذات يوم . . وأبصرت فيها آدمية فاتنة ساحرة . . فانتحيت بها جانباً وهمست فى أذنها :

— ما ظننت قط أن العفاريت تغير من الآميين ! !

— كنى عبثاً . . لا أحب الخديعة .

ونظرت إلى الفتاة فأدركت أن نصفى الآخر لا يمكن أن يكون إلا هى . . فعزمت على الزواج منها وأن نقطن الدار التى التقينا بها أول مرة . . وأقمنا العرس فى الدار وملأناها بهجة وحبوراً . . ومضت بضعة أيام ونحن ننعم بالحب والهناء .

وذات يوم أخبرتنى الفتاة المحبوبة أنها تحس بوعكة . . ولزمت الفراش وأخذت فى الذبول كأنها زهرة تذوى . حتى حلت نهايتها أخيراً .

وتركت الدار المخيفة ورأيت حارسها ينظر إلىّ باشفاق وسمعته يهمس : — لقد حذرتك فأخبرتنى أن المسألة لا تعدو الصدفة . . ليتك صدقتنى ! !



دموع الرجل المخيف

كانت رؤية الرجل تثير الرعب فى قلوبنـا . وكان منظره يبعث فى أبداننـا قشعريرة ويمـــلأ نفوسنا هلعاً .

وكان أول ما أذكره عنه هو تلك الصورة التى طبعت له فى رأسى منذ عشرات السنين ونحن ما زلنـا أطفالا نلهو ونعبث . . وما زلت أذكر حتى الآن تلك الحجرة المترامية الأطراف فى منزلنا العتيق وقد أويت وأخوى إلى مضاجعنا ومعنا الخادمة التى كانت تقوم بمهمة تنويمنا . . ولم يكن هناك أثقل علينا فى ذلك الوقت من أن نأوى إلى مضاجعنا . . فقد كنا نـكره النوم لأنه يحرمنا من لذة اللعب واللهو وكنا نتمنى لو جعل الله الليل والنهار معاشاً ، حتى نستطيع أن نواصل اللعب ليل نهار .

وكانت الخادمة تضيق ذرعاً بنا . . وبإصرارنا على عدم النوم . . ففـكرت فى أن تخيفنا حتى نضطر إلى الانكماش فى الفراش فيغلبنا النوم ونروح فى سبات عميق . . وبدأت عملية التخويف فأخبرتنا أننا إذا استمررنا على هذه « العفرتة والشقاوة » وأبينا أن ننـام ، فستضطر إلى أن تشكونا إلى الشيخ « شيبون شيبر » وهو كفيل بأن يأكل من كل منـا

ذراعه أو ساقه .

وقفزنا من الفراش وأمسكنا بتلابيب الخادمة وسألناها عمن يكون هذا الشيخ الشيبون وما قصته وما شكله ، وبدأت الخادمة تصفه لنا فأنبأتنا أنه جنى يبدو فى صورة رجل ضخم الجثة عريض المنكبين .. ذو وجه قبيح مخيف ونظرات شريرة قاسية يتطاير منها شرر ينير له الطريق عندما يسير فى الليل وأن أسنانه حادة كالسكاكين وأظافره قاطعة مدببة كالمخالب وأن أقدامه ليست كأقدام الإنسان بل هى أشبه بحوافر الخيل . . وأنه مولع بأكل الأطفال وخاصة الأشقياء منهم والذين يرفضون النوم .

وتشككنا أول الأمر فى حديث الخادمة . . ولكنها أرتنا أثر جرح فى ساقها وأكدت لنا أنه « عضة » من الشيخ « شيبون » عندما رفضت النوم ذات ليلة وهى طفلة صغيرة . . فبدأت عقولنا الصغيرة تؤمن أن الأمر ليس به خدعة .. وزادنا يقيناً من صحة كلامها تلك الأصوات الصادرة عن حوافر الخيل التى تجر عربات « الحنطور » والتى تقرع أرض الطريق قرعات منتظمة . . فقد أكدت لنا الخادمة أنها وقع أقدام الشيخ « شيبون » وهو يبحث عن الأطفال الأشقياء .

وهكذا رسمت الخادمة فى أذهاننا صورة مروعة لذلك الشخص المخيف الذى ابتكره ذهنها وأوحى به خيالها .. حتى تستطيع إرهابنا وقت الحاجة . . ولتسوسنا به إذا استعصى عليها أمرنا .

وإلى هنا ليس فى الأمر غرابة أو عجب ، فما من طفل إلا وله « بعبع » يخيفونه به حتى يرتدع ويزدجر ، وما أظن الشيخ شيبون يختلف فى شىء عن « أبو رجل مسلوخة » أو « عفريت الليل ، بسبع رجلين » إلى آخر هذه الشخصيات الخيالية التى ابتكرت لإرهاب الأطفال . . ولكن العجيب حقاً هو أن ينقلب شيبون فيصبح حقيقة لا وهما .. وأن نراه أمامنا جسداً متحركا . . لا طيفاً ولا شبحاً ، وإنساناً من دم ولحم لا خرافة ابتكرتها رأس خادمة .

ففى ذات يوم وقد أخذنا نلهو بالكرة أمام المنزل قذف أحدنا بها فأصابت ظهر أحد المارة . . وعدوت لآخذها . . فاستدار الرجل إلىّ بوجه غاضب ، وتسمرت قدماى فى الأرض ولم أستطع أن أكتم صرخة فزع انطلقت من صدرى . . فلقد كان الرجل هو « الشيخ شيبون شيبر » . نعم أقسم أنه هو ! ! فهذا الجسد الطويل الضخم كأنه المارد وهذا الوجه القبيح الدميم ، وتلك النظرات القاسية الشريرة

الصارمة . . وهذا الشرر الذى يكاد يتطاير من عينيه . . والأظافر التى تبدو كأنها مخالب طير كاسر ، وتلك الملابس العجيبة الفضفاضة . . كل هذا لا يكون إلا له . . نعم إنه هو بعينه بلا أدنى ريب ولا شك .

ووجدت الرجل يمسك بالكرة فينشب بها أظافره ، ويمزقها إرباً إرباً ، ثم يقذف بها فى وجهى ويمضى فى سبيله ووجدتنى أقف فى مكانى مذهولا مشدوها . . وقد أخذت عيناى تتبعان الرجل . . وتبحثان عن قدميه . . حتى يتأكدان أنهما حوافر خيل . . ولكن الرجل اختفى . . دون أن أستطيع تمييز قدميه فقد أخفتهما ملابسه الفضفاضة الجرارة . . وإن كان وقعهما على أرض الطريق يشبه إلى حد كبير تلك الطرقات التى كنا نسمعها فى بهمة الليل .

وعدت أدراجى أحمل أشلاء الكرة التى فتك بها الرجل وأنا أرتجف من الفزع فإذا ببقية الأطفال قد ولوا إلى دورهم مذعورين .

وفى الليل أنبأت الخادمة هامساً : إننى رأيت شيبون ، فبدرت منها ضحكة عالية ولكنها سرعان ماكست وجهها ملامح الجد وأنبأتنى هامسة :

— ألم أحذرك منه ؟ إياك بعد ذلك « والعفرتة » . .

لقد اكتفى هذه المرة بتمزيق الكرة .. ولكن لاأظنه سيكتفى فى المرة القادمة إلا بتمزيق جلدك وسحق عظامك .

وشجع هذا الحادث على أن تمعن الخادمة فى إخافتنا بالشيخ شيبون مادام قد دخل فى روعنا أنه حقيقة لا خرافة .. حتى حدث ذات يوم أن رأت بعينها ذلك الرجل الذى رأيته .. ومن ذلك الحين وهى لا تجرؤ على ذكر اسمه قط .. فلقد صدمتها رؤيته صدمة كادت تذيب قلبها .

كان ذلك قبيل الغسق وقد خرجت والفتاة لقضاء حاجة من السوق .. ولم نكد نبتعد عن الدار حتى وقع بصرنا على منظر بعث الرعب فى نفوسنا .. فقد سمعنا فى البدء صراخ طفل .. فلما اقتربنا من مكان الصراخ تسمرت قدماى فى الأرض فقد أبصرت شبح عملاق تبينت فيه ذلك الرجل الذى مزّق لنا الكرة والذى استطعت أن أجزم أنه هو نفسه الشيخ شيبون ذو الحوافر والمخالب .. وقد قبض بإحدى يديه على عنق الطفل .. وبالأخرى على هراوة أخذ ينهال بها على جسده بقسوة ووحشية .

وأمسكت بالخادمة بكلتا يدى كما يتشبث الغريق بلوح من الخشب .. وخبأت وجهى فى ثيابها وصحت بصوت مبحوح مرتعد :

— شبيون ! !

ويستطيع المرء أن يتخيل ما أصاب الفتاة من ذعر وفزع وهي ترى تلك الصورة التي ابتكرها ذهنها وحشدت فيها كل ماطاف برأسها من أصناف مرعبة مخيفة .. قد تجسدت وصارت كائناً حياً هو ذلك المخلوق المرعب الذي لا يفصله عنها إلا خطوات معدودات .

وأسلمت الفتاة ساقيها للريح وقد أمسكت بي من يدي .. وأخذنا نعدو كمن به مس من شيطان رجيم .. وقد كاد يقتلنا الرعب .. ومن ذلك اليوم وذكر الرجل لا يأتي على لسان الفتاة .. فقد كان ذكره يخيفها أكثر مما يخيفنا .

وذاع أمر الرجل وانتشر صيته .. وكان غريباً قد نزح إلى الناحية وقطن إحدى الدور القديمة المتواضعة وأنشأ به حانوتاً لبيع وشراء الأشياء القديمة ، وعرف بين أهل الناحية باسم « الشيخ شيبون شيبر » رغم أن اسمه الحقيقي لا يمت إلى هذا الاسم بصلة ولا شبه .. وكان أبرز ما في الرجل ذلك الذعر الذي يتركه في نفس كل من يراه مهما كان عمره أو كانت شجاعته .. وكان كذلك شديد الكراهية للأطفال والقسوة عليهم حتى بدأ الناس يتهامسون أن الرجل يخطف الأطفال ليضعهم في قبو يقع في أسفل حانوته ثم يلجأ إلى

تعذيبهم حتى يموتوا من فرط الألم .

* * *

ومرّت السنون وشببنا عن طوق الطفولة ، وقد بقيت منها ذكريات بعيدة باهتة . . وتغير كل شيء فينا إلا شيئاً واحداً ظل كما هو . . ذلك هو بغضنا للشيخ شيبون وخوفنا منه .

فقد استمر الرجل غامضاً كما هو . . ورغماً عما فعلته به السنون من أحدوداب فى الظهر واضمحلال فى الجسد . . فقد ظل على ماهو عليه من قسوة وصرامة ، واستمرت نظراته إلى الناس مليئة بالبغض والكراهية . . ولم يكن لكبر سنه أى أثر فى تخفيف ذلك الذعر الذى كان يعترى كل من رآه ، والرعب الذى يملأ قلب كل من صادفه .

واستمرت السنون فى السير فإذا بى وقد أضحيت زوجاً ، ثم أبا لطفل كأنه الدمية ، وأعاد التاريخ نفسه ، فإذا بابنى يخيفونه بالشيخ شيبون عند ما يستعصى عليهم تنويمه تماماً كما فعلوا مع أبيه من قبل . . وسألنى الطفل ذات يوم عما إذا كنت رأيت الشيخ شيبون ، وعما إذا كنت قد رأيت حوافره . . فأفهمته أنه آدمى مثلنا . . فلا حوافر له ولا مخالب . . فبدا الشك على وجه الطفل وأنبأنى أنه يريد أن يراه .

ولم يكن يخطر ببالى قط أن الظروف ستضطرنى إلى الذهاب

إلى الرجل فى حانوته وأن يرافقنى طفلى الصغير المحبوب عند زيارتى لذلك الرجل المخيف ، ولكن الأقدار أحيانا تجبر الإنسان على أن يفعل ما لم يكن يتصور فعله . . ففى ذات يوم خرجت مع طفلى أجول جولة فى الطرقات وأخذنا نسير الهوينا وأنا أجيبه على أسئلته التافهة التى لم يكف عنها لحظة واحدة مذ بدأنا السير . . ورأيتنى أقترب من حانوت الشيخ شيبون ، ولم أدر أى شيطان دفعنى إلى أن أسأل الطفل ضاحكا :

ــ ألا تريد أن ترى الشيخ شيبون ؟ هذا هو حانوته !

ورأيت بالطفل لهفة إلى رؤيته ، فقد كان يريد أن يتأكد أنه كائن حقيق . . وأنه مخيف كما يصفونه . . وأحسست بنفسى رغبة إلى أن أجلس معه وأحادثه . . وأن أرى من قرب الرجل الذى استمرت ذكراه أو رؤيته حتى من بعيد تثير فى نفسى الذعر ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً .

ودخلت الحانوت ولقيت الرجل وجهاً لوجه فلم أستطع أن أمنع موجة من الذعر سرت فى جسدى . . وأحسست بالطفل يتشبث بثيابى ويخبىء رأسه فيها.

وطلبت إلى الرجل أن يرينى بعضاً من التحف القديمة . . فذهب ينقب ثم عاد إلىّ ببعض من التماثيل والأوانى القديمة ، وأخذ يشرح لى قيمة كل منها . . وبدأ الخوف يذهب من نفسى

رويداً رويداً . . وحل محله الاطمئنان . . وكان حديث الرجل طلياً لطيفاً . . فبدأت أنساق معه فى الحديث حتى كدت أنسى أنه «الشيخ شيبون» . . . ووجدت الفزع قد ذهب أيضاً من نفس الطفل .

لقد رأيته يقترب من الرجل فى سكون . . ثم ينحنى ببطء ويمسك بثوبه الذى يكاد يمس الأرض فيرفعه مرة واحدة ويكشف عن قدمى الرجل وساقيه !

لقد كان الطفل يريد أن يتأكد هل هو ذو أقدام مثلنا أم أنه يسير على حوافر !

ورأيتنى أنا الآخر أثبت نظرى فى أقدامه حتى أتأكد مما يريد أن يتأكد منه الطفل .

وجدت أن قدمى الرجل طبعاً لاتكاد تختلفان عن أقدامنا فى شىء . . فمددت يدى لأجذب الطفل ولأؤنبه على سوء فعلته . . ولكن الرجل المخيف لم يترك لى الفرصة كى أفعل ماأردت . . فقد رفع كفه الثقيلة التى تشبه مخالب الوحش ثم أهوى بها على وجه الطفل فى صفعة لم تبصر عيناى أشد منها وصاح بغضب :

— كان خيراً لك أن تحسن تربيته .

وأبصرت الدماء تسيل من أنف ابنى المحبوب . .

ولا أظن أى إنسان يستطيع أن يتصور وقع ذلك فى نفسى وأنا أبصره والدماء تسيل من أنفه بعدأن صفعه ذلك الوحش القذر الكريه .

لقد اندفعت من مكانى أريد أن أحطم رأس الرجل . . ولكنى وجدت الطفل قد وقف يعترض طريق وأخذ يصيح بى :

— اتركه يا « با با » فهو آدمى مثلنا . . وليس شيطاناً أو جنياً .

ونظرت إلى الرجل . . فإذا بالتجهم قد زال عنه . . وحلت محله علامات آلام تعتمل فى جوفه كأن أحشاءه تتمزق ، ورأيته ينهار على أحد المقاعد . . وأبصرت الدموع تنهمر من عينيه بشدة .

ومد الرجل يديه فاحتضن الطفل بحنان ورفق وأخرج منديلا من جيبه يجفف به الدماء التى سالت من أنفه وسمعته يهمس إلىّ بصوت مبحوح :

— خمسة وعشرون عاماً استطعت أن أكبت فيها ذلك الحنان الذى يصطخب فى صدرى . . وأن أسدل على وجهى ذلك القناع البغيض من القسوة ، لقد نجحت فى أن أقسو على الأطفال وأن أتجهم لهم ، ولولا ذلك لما استطعت

أن أعيش لحظة . . ولقتلنى الحزن . . لقد كان كل طفل أراه يثير فى نفسى الذكرى الأليمة . . ويقطع نياط قلبي ويمزق أحشائى . . وكان يخيل لى أحياناً أن أتبنى كل طفل أراه . . أو أن أجمع أطفال العالم كلهم فأحتويهم فى صدرى . . فقد كنت أرى فى كل طفل ولدى الغائب المحبوب . . وكم كنت أعدو خلفهم فى الطرقات أظنه بينهم . . حتى ظننى الناس مجنوناً . . وخشوا على أطفالهم منى وأصبح الأطفال يتجنبوننى ويفزعون منى ، وكم انتظرت أوبته حتى طال بى الانتظار وفاض بى اليأس فصممت على النسيان وعزمت على أن أقتل ذلك العطف الذى فى قلبي . . وأن أتجهم وأقسو . . ومرت علىّ السنون ، فأصبحت كما ترى رجلا مخيفاً . . وظننت أننى سلوت ونسيت حتى دخلت إلى حانوتى بطفلك فتوجست منه خيفة . . فقد أحسست بعض الحنين . . لشدة الشبه بينه وبين طفلى المحبوب . . فصممت على أن أقسو عليه .

وثار غضبي عندما حاول أن يكشف عن ساقى ليرى (حوافرى) فلطمته هذه اللطمة العنيفة التى أسالت الدم من أنفه . . ثم شعرت بطعنة فى صميم قلبي عند ما منعك من الاعتداء علىّ لأننى آدمى مثلكم وليس بشيطان كما تزعمون . آه لو كانت الأرواح تعود إلى الأرض مرة أخرى

لأقسمت أن هذا هو طفلي . . فهو أول من أراه يحنو عليّ بعد أن ذهب ولدى . . إنى لأتخيله الآن وقد امتطى حماره ، ووضع عليـه السلال الفارغة . . فقـد كان ذلك هو خير ما يلهيه ويطربه . . يجول الطرقات مقلداً صوت الباعة حتى يذهب إلى شاطىء النهر . . فيعبث بحماره فى المـاء ثم يعود إلى الدار .

وفى ذات يوم خرج كعادته ، وقد علا غنـاؤه ورنت ضحكاته . . وكنت أشعر بتشاؤم يملأ قلبي . . فقد فقدت أمه المحبوبة فى مثل ذلك اليوم منذ بضع سنين خلت .

وخيل إلىّ أن الطفل قد تأخر . . ولـكننى ظننت أن ذلك مرجعه ما بقلبي من تشاؤم . . فتماسكت بأطراف الصبر حتى حل الظلام . . وقفزت من مكانى وأخذت أعدو فى الطريق كالمجانين ، وكان أول ما صادفنى . . الحمار بلا شىء على ظهره سوى السلال الفارغة .

وخيـل إلىّ أن قلبي على وشك أن يقفز من مكانه . . وأمسكت برأس الحمار من فرط ما بى من جنـة أسأله عن الطفل . . واستمر الحمار مطأطىء الرأس فى صمت عميق . . ثم استدار بعد برهة وسار فى طريقه وأنا أتبعه . . حتى انتهى بى إلى شاطىء النهر .

ولم أجد هناك آدمياً أستطيع أن أستدل منه على الطفل .

والجنونى . . أخذت أجرى هنا وهناك . . حتى أنهكنى التعب ، والحمار واقف أمام بقعة على الشاطىء لا يتحرك ، وأخيراً لم أستطع إلا أن أجلس بجوار الحمار أرقب وأنتظر .

وجلست فى مكانى وعيناى مثبتة بالماء . . أربعة أيام بلا طعام ولا شراب ، والحمار واقف بجوارى وعلى ظهره السلال الفارغة . . حتى حملنى الناس إلى الدار كأنى جثة هامدة . .

* * *

وهنا رأيت طفلى يقفز من على ركبتى ثم يشير بأصبعه إلى نهاية الطريق ويصيح قائلا :

ــ أنظر يا أبتاه . . هذا الطفل الذى امتطى حماره وأمامه السلال الفارغة .

ومدّ كل منا رأسه فأبصرنا فى نهاية الطريق طفلا شديد الشبه بذلك الطفل الذى مازال الرجل ينتظر أوبته . وندت من الرجل صرخة خافتة وحاول القيام ولكنه لم يستطع كأنما أصيب بشلل فأشار إلى أن أعدو وراء الطفل فأحضره . . وقفزت من مكانى وعدوت وراء الطفل

لأحضره إليه حتى أخفف ما بنفسه من لوعة . . ولكننى لم أكد أصل إلى نهاية الطريق حتى كان الطفل قد اختنق . . وعدت أدراجى وبى حنق على طفلى لأنه حرّك فجيعة الرجل ونكأ جرحه بإشارته إلى ذلك الطفل ، وصممت أن أبذل كل مافى وسعى حتى أرفه عن نفسه وأزيل مابها من حزن ولوعة . . ولكننى لم أكد أصل إلى الحانوت ، وأحدث الرجل حتى وجدت أنه لم يعد فى حاجة إلى ترفيه أو تسلية فقد كان أبعد من أن يصل إليه حديثى . . لقد فاضت روحه وذهب إلى حيث يستطيع أن يلقى طفله المحبوب .

فهرس

شركة فن الطباعة

صندوق بوستة ٤ شبرا مصر ت ٥٨١٤٩